

الدكتور بشار عواد معروف
التربية والتعليم في العراق
حتى نهاية العصر العباسي
مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع


التربية والتعليم في العراق
حتى نهاية العصر العباسي

بسم الله الرحمن الرحيم

التربية والتعليم في العراق

حتى نهاية العصر العباسي

الدكتور بشار عواد معروف

الباحث الرئيس في عمادة البحث العلمي

بالجامعة الأردنية

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٣٨٦٦ / ١٤ - ١٢ - ٢٠١٠م

I S B N
978- 977- 481- 056- 5

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

معروف ، بشار عواد .
التربية والتعليم في العراق حتى نهاية العصر العباسي / بشار عواد معروف .- ط١ .- القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠ .
٢٢٤ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٠٥٦ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨
١- التعليم - تاريخ - العراق أ - العنوان
٣٧٩,٥٦٧

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع
القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٢
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١٨٦١١٤

المحتويات

* * *

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وقدوتنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه أجمعين ، وبعد :

فهذا كتاب نافع إن شاء الله ، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ، تناولت فيه بإيجاز غير مخل الملامح العامة لنظام التربية والتعليم في العراق حتى نهاية العصر العباسي ، جعلته في أربعة فصول :

* **تناول الفصل الأول « أسس الفكر التربوي » عند العرب المسلمين** ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في ثلاثة مباحث :

أولها « بناء الإنسان الجديد » بعد أن هيأ الله تعالى الأمة العربية المسلمة لمهمة حمل الرسالة الإسلامية الخالدة وتبليغها للعالمين ما بين مشرق للشمس ومغيب ، وذلك بتربية الإنسان منذ ولادته إلى حين وفاته ورعايته طفلاً وشابًا وكهلاً وشيخًا ، ووضع القواعد المؤدية إلى هذا الهدف العظيم ليكون عنصرًا قادرًا على تحمل الأمانة وأداء الرسالة ، بانيًا كل ذلك على ترابط عضوي بين العلم والعمل ، مرسخًا جملة من المبادئ التربوية المؤدية إلى خلق مواطن مؤمن تقي مستقيم صادق صبور رحيم متسامح بار يأمر بالعدل والإحسان ويسعى إلى إحقاق الحق وإشاعة المعروف وإماتة المنكر .

أما المبحث الثاني فتناول فضل العلم ومنزلة العلماء في الإسلام ، وما يحتله العلماء من المنزلة الرفيعة والتقدير والاحترام بما لا نجده في أمة أخرى ، فقد أكد القرآن الكريم في مئات الآيات على ذلك ، وخصصت كتب الحديث أبوابًا خاصة في فضل العلم والتعليم ، فضلاً عما شهده التاريخ من تقدير منقطع النظير للعلماء ووضعهم في منزلة كان الملوك وأرباب السلطان يتمنون التطاول

إليها ، فخلدت مئات الكتب تراجمهم وسيرهم على مدى التاريخ من غير نظر إلى أصلهم النَّسَبي أو مركزهم المالي أو سلطانهم السياسي .

وعُني **المبحث الثالث من هذا الفصل** بتطور حركة التربية والتعليم في العراق بعد أن حرّره الإسلام من طغيان الفرس المجوس على عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق « رضي الله عنه » في معارك الإسلام الخالدة : القادسية وجلولاء ونهاوند ، وتمصير البصرة والكوفة اللتين سرعان ما أصبحتا قاعدتين عظيمتين من قواعد الحركة الفكرية في علوم الإسلام من عناية بعلوم القرآن والسُّنة والفقه والعربية والشعر ، ثم جاء إنشاء بغداد في عصر أبي جعفر المنصور واتساع عمرانها وازدهار الحركة الفكرية فيها حينما صارت عاصمة الدنيا العربية الإسلامية خمس مئينَ من السِّنين ويزيد احتلت الريادة والسيادة العلمية فيها .

وعُنيت في الفصل الثاني بدراسة سبل « تربية الأطفال وتعليمهم » ، فجاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث ، تناول الأول منها تربية الأطفال وعناية المسلمين بغرس المثل العليا والقيم الأصيلة فيهم وتفننهم في ذلك وإبداعهم فيه ، وعنايتهم بتأليف الكتب الباحثة في أصول التربية السليمة القويمة التي تتفق في كثير من أسسها مع أحدث النظريات التربوية الحديثة كما يظهر في كتابات عدد من علماء العراق أمثال الجاحظ والخطيب البغدادي وأبي حامد الغزالي .

أما المبحث الثاني فعُني بتعليم الأطفال في الكتاتيب ، وانتشارها في العراق انتشارًا واسعًا ، وتناول أحوال العاملين في هذه المؤسسة من مُعلّمين ومساعدين ، وما يتعين توفره في المعلم من شروط ، فضلاً عما تناوله من دراسة لطبيعة الكتاتيب من حيث إقامتها والإنفاق عليها ، وما يتعلمه الطفل فيها . كما تناول المبحث أحوال « المؤدبين » الذين يعلّمون أولاد الخلفاء والأمراء والمياسير

وكيف كان يتم اختيارهم من بين العلماء النابهين .

وخُصص المبحث الثالث لتعليم البنات وانتشاره ، والرد على من زعم أنّ البنت لم تلتحق بالكتّاب صبية ولم تجلس في حلقة الرجال شابة ، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق أحد أقاربها أو بمؤدب يُدعى لها ، فبينا فساد هذا القول وأنه لم يقم على استقراء تام للنصوص وتتبع لطبيعة الحركة الفكرية العربية الإسلامية ، وأثبتنا بالأدلة ما يدحضه ويبين أن المرأة قد نالت من التعليم قسطًا غير قليل إذا ما قيست بنظيراتها عند الأمم الأخرى ، بظهور مئات العالمات في شتى صنوف العلم .

* وتناول الفصل الثالث المؤسسات التعليمية ، واقتضت طبيعته أن يكون في تمهيد وخمسة مباحث :

أشرنا في التمهيد إلى أن الأصل في الحركة التعليمية في العصور الإسلامية عامة والعراق خاصة هو الأستاذ والكتاب .

وعني المبحث الأول بدراسة التعليم في الجوامع والمساجد التي قامت بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة ، واختصاصها بالدراسات الدينية وما يتصل بها من علوم العربية . وتناول طبيعة الدراسة في المساجد الجامعة وطريقتها واحتوائها على « الحلقات » العلمية . أما المساجد فكانت تختص عادة في علم واحد من العلوم الدينية أو ما يتصل بها ، فكان بعضها يختص بعلوم القرآن أو رواية الحديث أو اللغة ، أو تدريس الفقه على مذهب معين وهي السمة الغالبة عليها ، حيث كان لكل مذهب فقهي مدرس خاص في مسجد معين . وعني هذا المبحث بتتبع طبيعة التعليم في المساجد والمدة التي يستغرقها الطالب في الدراسة والعمر

الذي يلتحق فيه ، والمادة التي يُعني بدراستها ، وخلصتُ إلى أنَّ الدراسة الفقهية المسجدية تعدل في عصرنا الدراسة الجامعية الأولية (البكالوريوس) .

أما المبحث الثاني فتناول أماكن دراسة العلوم الصرفة ، بينت فيه خطأ من ذهب إلى أن بيوت الحكمة ودور العلم وأسواق الوراقين كانت معاهد لتدريس هذه العلوم ، وتوصلت إلى أن الأستاذ والكتاب هما أداة العلم في هذه العلوم في تلك الأعصر .

وعني المبحث الثالث بظهور المدارس المستقلة ومحاولة معرفة الأسباب التي أدت إلى قيامها بعد أن ازدهر التعليم مدة تزيد على أربعة قرون من غيرها ، وبينت أن السبب الرئيس في ذلك هو محاولة السلطة كسب العلماء وإزالة الجفاء المستديم بينهما ، فضلاً عن الأهداف السامية في البر .

وتناول المبحث الرابع خصائص المدارس ونظمها ، فبينت أن اسم « مدرسة » غالبًا ما كان يعني مدرسة لتدريس الفقه ، وأن كل مدرسة كانت تحتوي على إيوان (قاعة محاضرات) لمدارس الفقه في المدرسة الأحادية أو عدة أواوين على حسب عدد المذاهب التي تدرس فيها ، وغالبًا ما تلحق بها خزانة كتب ، وأن الذي يُنشئ المدرسة خليفة أو أمير أو أحد المياسير ويوقف عليها الوقوف الدارة القادرة على إدامتها ، ومن ثم فهو الذي يعين المدرسين والموظفين ويعزلهم .

وعُني المبحث الأخير بدراسة أهمية المدارس ودورها في الحركة الفكرية إيجابًا وسلبًا .

* **وكان الفصل الرابع من هذه الدراسة أطول الفصول حينما تناول مدارس العراق في العصر العباسي** ، وجاء في سبعة مباحث تناول كل مبحث

منها المدارس في مدينة من مدنه الرئيسة ، وفي مقدمتها بغداد عاصمة الدنيا العربية الإسلامية ، ثم البصرة ، والكوفة ، وواسط ، والموصل ، وأربيل ، ومدارس أخرى . وقد عُنيت باستقصاء جميع مدارس العراق على وجه الاختصار استنادًا إلى تسلسلها الزمني في كل مدينة منها ، فذكرنا لبغداد (٣٥) مدرسة ، وللبصرة (٦) مدارس ، ولواسط (٧) مدارس ، وللموصل (١٥) مدرسة ، ولأربيل (٥) مدارس ، ومدرستين إحداهما بسنجار والأخرى بتكريت . أما الكوفة فعلى الرغم من وجود حركة فكرية نشطة فيها ، لكننا لم نقف على مدرسة فيها .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة الوجيزة إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير للجامعة الأردنية ورئيسها ، ولعمادة البحث العلمي وعميدها الذين هيأوا الأجواء العلمية لإنجاز هذا البحث ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

الفَصْلُ الأَوَّل

أُسُسُ الفِكْرِ التَّرْبَوِي

المبحث الأول

بناء الإنسان الجديد

عُني العربُ قبل الإسلام ببناء الإنسان وتنشئته النشأةَ التي تتفق وقيمهم السامية ونخوتهم العربية التي تأصلت فيها طبائعُ الخَيْر على مدى التاريخ ، ولهم فيما أُثر من آدابهم وما حَفلت به شواهدُ التاريخ أمثلة رائعة لا تخفَى على كلِ دارسٍ ومتتبع لتاريخهم وسِيَرهم ، ومبنَى ذلك على أَخلاقهم « وهي الغرائز المخلوقة في النفس وغرائزهم أطوع للخَيْر من غيرهم فهم أَقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الأَخلاق المحمودة »[1] .

ولكن الظروف التي مرت بعرب ما قبل الإسلام جعلتهم يتعدون عن فِطْرتهم الخَيِّرة التي فطرَهُم اللهُ عليها فدخلتهم بعض العادات والتقاليد مما لم يكن يتلاءم وطبيعتهم فجاء الإسلام ليزيل تلك الرَّيون عن قُلُوبهم . على أن الذي لا ينبغي أن يشك فيه مُسلم أنَّ الله الحكيم ما أختارَ خاتم رُسله من العرب إلا لأنهم كانوا أبعد أهل الأرض عن الفساد الشامل والانحلال التام الذي عَمَّ المجتمع الإنساني آنذاك ، فلقد كان العرب مع ما تداخلهم من جِنْس شركٍ ووثنيةٍ قبل الإسلام أحفظ أهل الأَرض لصفات الرُّجولة لما اقتضته حياتهم من الوُضوح والصَّراحة والبُعد عن الالتواء والعُقد النفسية .

ولما بعثَ اللهُ سبحانه محمدًا ﷺ بالهُدَى وحَمَّلَ العربَ مسؤولية نَشْر الرِّسالة وخَصَّهُم بتلك الفَضِيلة العُظمى دون سائر خَلْقِهِ تلقوا عنه ذلك الهَدْي العظيم واستنارت به نُفُوسهم وأخذوه بفطرتهم الجيدة إذ « كانوا قبل الإسلام

---

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ١٦٠ .

طبيعةٌ قابلةٌ للخَيْر معطلة عن فعله »[١] ، يقول شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية : « فاجتمع لهم الكَمَال بالقوة المَخْلوقة فيهم والكمال الذي أنزلَهُ اللهُ إليهم بمنزلة أرض جَيِّدةٍ في نفسها لكن هي مُعَطّلة عن الحَرْث أو قد نبتَ فيها شجر العَضَاة والعَوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فإذا طُهِّرت عن المؤذي من الشَّجَر والدواب وازدرع فيها أفضل الحُبُوب والثِّمار جاءَ فيها من الحَرْث ما لا يُوصف مثله فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء »[٢] وهم صَفْوةُ العرب آنذاك .

وقد غُنِيَ الإسلام بمُثُلِ العرب الأصيلة وقيمهم النَّبيلة فأدخلها في إطاره الجديد ، فهو لم يَنْسخ كل ما كان عند العرب قبل الإسلام بل إن سكوتَ النبيِّ ﷺ عن إنكار قولٍ أو فعلٍ يدل على جواز الفِعْل وإباحته ، لأنه ﷺ لا يسكت عن باطل أبدًا . وقد أقرَّ رسولُ الله ﷺ كثيرًا من الحَسَن النَّافعِ من عادات العرب وأخلاقهم وعَدَّلَ البعضَ الآخر منها وصقلَه وهَذَّبه ، ثم جاءَ الإسلامُ بمبادئَ جديدة في بناء الشخصية الجديدة ، وبذلك راعى الإسلام كثيرًا من عادات العرب وتقاليدهم ، وعَمِلَ الإسلامُ على ترسيخ المبادئَ التي تؤدي إلى بناء الإنسان الجديد بما يؤهله لحمل العبءِ الثَّقيل الملقَى على عاتقه والرِّسالة الخطيرةِ التي حَمّلها اللهُ سبحانه للأمة العربية دون غيرها .

وكان من أول ما قصده إبادة الشِّرك والقَضاء عليه وتَرْسيخ التوحيد المُطْلق والإيمان بالله ورُسُله وكتبه واليوم الآخر ، وهو امتدادًا لما جاء به الأنبياء من قبل ، وعودةً إلى الطريق القويم ، قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٦١ – ١٦٢ .

نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، فالله سبحانه وتعالى بعث نبيه محمدًا ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق التي جاء بها الأنبياء قبله ، وإن هذا الدين إنما جاء لهداية الإنسان وإسعاده ، وهو مصدرُ خيرٍ ودعوةٌ للصلاح والتآخي بما يقوي آصرةَ التعاون والتضامن في المجتمع الإنساني ويعيد الإنسانية إلى تكوينها الفِطْري الأول لرعاية بعضها رَحِمَ بعضٍ ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

ثم عُنِيَ الإسلام بتربية الإنسان منذ ولادته إلى حين وفاته ، ورعاه طفلاً وشابًا وكهلاً وشيخًا ، ووضعَ القواعد لتربيته وتنشئته وتوجيهه نحو الخَيْر ، ليكون عنصرًا نافعًا في الحياة ؛ لأنه عَدَّه سيّد العالم وأشرف المخلوقات وأفضلها ، فعُنِيَ بعقله ومعرفته وتهذيبه .

والعقل هو أساس التفكير وعمادُ الحياة والركيزة التي يُبْنَى بها الإنسانُ القويم ، يقول ابن قيم الجوزية يرحمه الله : « وضعَ الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارمْ الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصر المظلوم والإعانة على نوائب الحق وقري الضيف وحمل الكَلّ ونحو ذلك ، ووضع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك »[١] .

(١) ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان ٢ / ١٣٨ (دار المعرفة ط ٢ ، بيروت ١٩٧٥ م) .

وقدّر الإسلام العقل وأعلى منزلته وجعله من صفات المؤمنين ، وسلبه عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان ، قال تعالى في حق الكفار ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٨] .

وقد جاء ذكر العقل ومشتقاته في القرآن في نحو من خمسين آية دعا فيها الله سبحانه إلى التأمل والتفكر والتدبر وشحذ الذهن لمعرفة الحقائق وذم أولئك الذين لا يفكرون ولا يعقلون في العديد منها .

ورسَّخَ الإسلامُ جملةً من المبادئ التربوية المؤدية إلى خلق مواطنٍ مؤمن تقي مستقيم صادق صبور رحيم مُتسامح بار ، يأمرُ بالعدل والإحسان ، ويسعى إلى إحقاق الحق وإشاعة المعروف وإماتة المنكر ليقوم بدوره المطلوب في هذه الحياة على وفق الأُسس الأخلاقية العربية الإسلامية المشيَّدة على صروح من الإيمان بالتعاون وتقديس الحرية والأخذ بمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ، وبنَى كل ذلك على ترابط عضوي بين العلم والعَمَل .

فقد دعا الإسلام الناس كافة إلى إصلاح نفوسهم بتقوى الله من أجل صلاح حالهم في الدُّنيا والآخرة ، فكرر القرآن الكريم لفظة التقْوى ومشتقاتها في (٢٤٢) موضعًا ، وقرنَ بالتقوى كثيراً من الأُمور الأُخلاقية كالاستقامة والصدق والعدل والعفو والبر والوفاء ، ودعاهم إلى الاستقامة في الحياة وإصلاح النَّفس والسمو بها على الرذائل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

ولما كان الصِّدْق في القول والعمل وتجنب الكذب من أسمى الصفات التي ينبغي على الإنسان التحلي بها فقد كرّر القُرآن الكريم الصدق ومشتقاته في

عشرات الآيات ، قال تعالى ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٤] وفي الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ « إنَّ الصدق يهدي إلى البر وإنَّ البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا ، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار ، وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا »(١) .

أما الصَّبْر فهو من أهم الفضائل التي تشد من عزم الإنسان للوقوف أمام الشدائد والمصائب ، ويقوي النفس الإنسانية على احتمال ما يحتمله الإنسان من أجل مبادئه وقيمه ، قال تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] وقال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

والرَّحمة من الصفات التي كرَّسها الإسلام في الإنسان المؤمن الجديد فتكررت في القُرآن مئات المرات ووصف الله سبحانه نفسه بأنه الرحمن الرَّحيم، وقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وفي الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٢) .

وطالب الدين الجديد المسلم أن يكون متسامحًا صفوحًا ، قال تعالى ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وظهر أثر هذا البناء التَّربوي وتأكدت مصداقيته في تساهل العرب المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود (٦٠٩٤) واللفظ له ، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٤) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد ٢ / ١٦٠ ، والحميدي (٥٩١) و (٥٩٢) ، وابن أبي شيبة ٨ / ٥٢٦ ، وأبو داود (٤٩٤١) ، والترمذي (١٩٢٤) وقال : حسن صحيح .

حين لم يكرهوا أي فرد أو جماعة على الدخول في دينهم في جميع عصور الإسلام قال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقد نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار - أو في رجل منهم - كان لهم أولاد هودوهم أو نصروهم فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام ، ثم صار هذا الحكم عامًا في كل ما جانس المعنى الذي أنزلت فيه(١) .

وحث الإسلام على أعمال البر ودعا إلى التعاون عليها للقضاء على الفوارق الطبقية في المجتمع ؛ مثل نشر التعليم ، وإنفاق الأموال لمساعدة المحتاجين ، ومعالجة المرضى ، والجهاد في سبيل الله . وعدَّ من أعمال البر كل المساعدات التي يقوم بها الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، وأن يكون الإنفاق من أعز الأموال التي يمتلكها المرء ، قال تعالى ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

كما حثَّ على إشاعة العَدْل وعده من أهدافه الكبرى التي حض على تحقيقها في المجتمع الجديد ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] وقال : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ [المائدة : ٨] ، ودعا إلى إماتة الظلم ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو ذر الغفاري عن الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تَظَالموا »(٢) وفي الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظُّلم فإنَّ الظلم

(١) تفسير الطبري من كتابه جامع البيان ٢ / ١٣٢ - ١٣٤ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) .

ظلمات يوم القيامة »[١] وقال ﷺ « المُسلم أخو المسلم لا يظلمُهُ ولا يُسْلِمُه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فَرجَ عن مُسلم كُربةً فَرَّجَ اللهُ عنه بها كُربةً من كُرَب يوم القيامة ، ومن سَتَرَ مُسلمًا سترهُ اللهُ يوم القيامة »[٢] .

إنَّ المثل الأخلاقية الراقية التي دعا الإسلام إليها كثيرة قلما ترك شيئًا منها ، وقد هدف من كل ذلك إلى تربية جيلٍ قوي متماسك خَيِّرٍ يُصبح مثلاً يُقْتَدَى به على تعاقب الأزمان ومختلف البيئات من أجل بناء مجتمع سليم متلاحم يقوم على التعاون يشدُّ بعضه بعضًا ، ففي الحديث الصحيح « المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشد بعضه بعضًا »[٣] و « مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجَسَد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجَسَد بالسَّهر والحُمَّى »[٤] . وجعل الإسلام المودة بين أفراد المجتمع من الإيمان ، ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمنُ أحدَكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه »[٥] .

ومن المعلوم الواضح عند كل ذي بَصيرةٍ أنَّ التربيةَ السليمة الصحيحة لا تحصل إلا بتزكية النفس وتطهيرها من الأدناس الطبيعية والأخلاق البهيمية وذلك منحصر في أمرين لا ثالث لهما وهما : العلم النافع ، والعمل الصالح .

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) و (٦٩٥١) ، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨١) و (٢٤٤٦) و (٦٠٢٦) ، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير .

(٥) البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٤) .

وقد عَدَّ الإسلام العمل من الدينِ وفتح أبواب العَمَل لكل إنسان وطلب إليه أن يعمل لدُنياه ولآخرته ، ولم يفرق بين العبادة وبين العمل الصَّالح الذي يقوم به ، بل قرنه بالإيمان السَّليم ، قال تعلى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] وقال عزّ من قائل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] . ولم يساو الإسلام بين العاملين والقاعدين بل فضل العاملين من الرجال والنساء ووعد من يعمل منهم بأن لهم أعلى الدرجات وأحسن الجزاء في الدُّنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧] .

وحَثَّ الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة على العمل ، ووضع القواعد الضابطة له ، ودعا إلى عدم الزُّهد في الدنيا أو التفريط فيها ، وطلبَ من المُسلم السعي لكسب المال الصَّالح والتسابق في ذلك لما له من أهمية في بناء المجتمع الجديد القوي .

ومن أجل غَرْس هذه المبادئ العربية الإسلامية التي دعا الإسلام إلى تكريسها في عقول الناشئة اتجه المجتمع العربي الإسلامي نحو تهيئة السبل الكفيلة بتحقيق مجتمع يقوم على هذين المبدأين العظيمين : العمل الصالح والعلم النافع ، فكان من أول ما عُنوا به إشاعة العلم والتعليم وتطوير مؤسساته في العصور المتعاقبة ابتداء من عهد المعلم الأول رسُول الله ﷺ الذي عَزَّز هذا المبدأ وحَضَّ عليه ودعا إليه بالقول والعمل .

* * *

المبحث الثاني
فَضْل العلم ومنزلة العُلماء

احتل العلمُ منزلةً رفيعة في الإسلامَ ونال العلماء من المكانة والتقدير ما لم يبلغوه في أمة أخرى ، فقد أقسم الله تعالى بالقَلَم وما يسطرون ؛ لأن الإنسان بالقلم تعلَّم ما لم يعلمَ ، وقَرَن اللهُ عز وجل أهل العلم به وبملائكته ، فقال عز من قائل : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وذكر العلمَ والعُلماء في مئات من الآيات ، فرفع الله الذين أوتوا العلم درجات : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧ والنحل : ٤٣] وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩]

وليس المقصود من العلم في هذه الآيات هو علم الدين فحسب بل هو كل علم نافع يرفع من قدر الإنسان وينمي عقَلهُ ويجعله أكثر خبرةً بالحياة واطلاعًا على أحوالها .

وخصصت كتب الحديث أبوابًا خاصة في فَضْل العلم والتعلم أوردت فيها ما أثر عن رسول الله ﷺ في فضل العلم والعلماء ، ففي صحيح البخاري « أن العلم قبلَ القَول والعمل لقوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ورَّثوا العلم ، مَنْ أَخَذَهُ أخذَ بحظٍ وافرٍ ، ومَن

سلكَ طريقًا يطلب به علمًا سَهَّلَ اللهُ له طريقًا إلى الجنة ... وقال النبي ﷺ « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين »[١] ثم ساق العديد من الأحاديث منها حديث معاوية رضي الله عنه : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[٢] ، كما بَوَّب للاغتباط في العلم و الحكمة ، وساق فيه حديث عبد الله بن مسعودرضي الله الله عنه : « لا حَسَدَ إلا في اثنتين : رجلٌ آتاه اللهُ مالا فَسُلِّطَ على هَلَكتِهِ في الحق ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها »[٣] .

والأحاديث النبوية الشريفة في فضل العلم والتعلم كثيرة . كما وردت آثار جليلة عن عناية الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة والتابعين بالعلم والتعليم والحض على الدَّرس وتوجب العلم كُل مُسلم ومُسلمة ، فقال الإمام علي رضي الله عنه : « العلمُ خيرٌ من المال ، لأنَّ المالَ تحرسه والعلم يحرسك ، والمال تفنيه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، مات خُزّان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة »[٤] .

وقد نال العالم في تاريخ العرب منزلة لم ينلها كثير من الناس ، فرفع العلم قدره ووضعه في منزلة كان الملوك وأرباب السلطان يتمنون التطاول إليها ، فخلّدت مئات الكتب التي ألفها المؤلفون سير العلماء وأخبارهم وتراجمهم

---

(١) البخاري ١ : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) البخاري (٧١) .

(٣) البخاري (٧٣) .

(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله : ٥٧ .

وأقوالهم من غير نظرٍ إلى أصلٍ اجتماعي أو مركز مالي أو سلطان سياسي .

ومن المعلوم أنَّ هذا التقدير الذي حظي به العلم والعلماء إنما جاءَ أولا بسبب علاقته المباشرة بالدين ، فالإسلام لا يترسخ إلا بالتعليم ، ثم صار بعد ذلك منهاجًا وشِرْعةً وأساسًا في المجتمع العربي الإسلامي ، فانسحب على العلوم غير الدينية والمعنيين بها .

* * *

المبحث الثالث

تطور حركة التَّربية والتعليم

حينما حَرَّر العرب المسلمون العراق من الاحتلال الفارسي المجوسي البغيض مَصَّرَ أمير المؤمنين عمر بنُ الخطاب البصرةَ والكُوفةَ لتكونا قاعدتين للمُقاتلة العرب وعيالاتهم ومركزين لإدارة الأقاليم ، وقد قامَ أهلُ البَصْرة والكوفة بدَحْر الجيوش الفارسية الكُبرى ، وتصفية الحُكم الساساني تصفيةً نهائية ، فاستقرت الدولة العربية وبدأت تَسُود في هذين المصرين حياة السِّلْم والاستقرار ، فعُني أهلُها بتوسيع قاعدة التعليم وازدادت عنايتهم بالحركة الفكرية المتصلة بعلوم العروبة والإسلام كدراسة القُرآن الكريم ورواية الحديث ، واستنباط الآراء الفقهية ، والعناية بالعربية وعُلومها .

وقد عُني أهل الكوفة بالقُرآن الكريم وكان عدد القُرَّاء بها في صدر الإسلام يزيد على أية مدينة أُخرى ومنها مكة والمدينة . كما عُني الكوفيون برواية حديث رسول الله ﷺ ودراسته ، ويذكر محمد بن سيرين أنَّه قَدِمَ الكوفة قبل الجماجم سنة (٨٢ هـ / ٧٠١ م) فرأى فيها أربعة آلاف يطلبون الحديث(١) . واجتهد الكُوفيون بجمع الشِّعر وروايته فكانوا « أعلم بالشعر من أهل البصرة »(٢) . ويُذكَر أنَّ « الشعر بالكُوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة »(٣) . وبرز الكُوفيون بدراساتهم الفقهية المتطورة التي حاولت إيجاد حُلول لمشاكل

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ٦٥ .

(٢) ابن جني : الخصائص ١ / ٣٨٧ .

(٣) السيوطي : المزهر ٢ / ٢٥٤ .

المجتمع الجديد المتطور فبرز فيهم أعاظم الفقهاء مثل : عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) ، وعلقمة بن قيس النخعي (ت ٦٢ هـ) ، وإبراهيم بن يزيد النَّخعي (ت ٩٦ هـ) ، و حماد بن أبي سليمان (ت ١٢٧ هـ) ، وأبو حنيفة (ت ١٥٠هـ) ، وغيرهم ، وهو ما عُرف عند الفقهاء بفقه العراق .

واشتُهِرت البصرة بعنايتها الفائقة بعلم العربية في لغتها ونحوها ، يقول النديم : « علم العربية عنهم أخذ »[1] . وقد عَمّ الأسلوب الذي اخترعه البصريون في نَقْط القرآن وأخذه العالم الإسلامي بأجمعه عنهم ، واشتهرت البَصْرة بظهور حركات الزُّهد والاعتزال التي انتشرت منها إلى بقاع الأرض .

وفي أوائل العصر العباسي أُنشئت بغداد ، واتسع عمرانها ، وأصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية الكُبرى الممتدة من المحيط الأطلسي غربًا إلى حدود الصين شرقًا ، وتطورت فيها الحياة الحَضَرية ، وازدهر اقتصادُها ، فنمت الحركة الفكرية فيها نموًا مضطردًا مما جعلها تحتل الريادة والسيادة في العلم أكثر من خمسة قرون .

وقد أسهم العرب في العراق في تطوير حركة التربية والتعليم إسهامًا رائعًا ، فكانوا روادًا في كثير من الأمور المتصلة بهذا الشأن ، وكانت المساجد والجوامع والأسواق وخزائن الكُتُب ودور العلم والمدارس في حواضر العراق تعج بطلبة العلم من أهلها والواردين عليها . وألف علماء العراق المؤلفات الباحثة في التربية والتعليم ، وبحثوا في الوسائل التعليمية وناقشوا الأُسس التربوية الهادفة إلى ترسيخ القيم النبيلة وتربية الإنسان الجديد الذي دعا الإسلام إلى بنائه .

---

(١) النديم : الفهرست ١ / ١٩١ (ط . العلامة أيمن فؤاد السيد) .

وسنحاول في بحثينا هذا تبيان المسالك التي سلكها العلماء العراقيون للوصول إلى هذه الأهداف ، فنتناول جهودهم في تربية الأطفال وتعليمهم والمبادئ التربوية والتّعليمية الهادفة إلى تعليم جيد راسخ يحقق مع جودته الاقتصاد في الوقت والجهد ، ويُنْتفع به في مواقف الحياة المختلفة .

ثم نتناول المؤسسات التعليمية فنبحث في المؤسسات التي سبقت تأسيس المدارس سواء أكان منها ما عُنِيَ بالعلوم الإسلامية كالمساجد والجوامع وما إليها ، أم تلك المؤسسات التي ظنَّ البعضُ أنها عُنيت بالعلوم العامة مثل دور العلم وخزائن الكتب والمستشفيات ونحوها ، ثم نتتبع نشأة المدارس والأُسس التي قامت عليها والمناهج التي اتبعتها وما أصابها من تطور ونتطرق إلى أحوال المدرسين والطلبة .

ولما كان الموضوع واسعًا متشعبًا فإننا سنكتفي بإيراد الملامح العامة التي تظهر التطور الحضاري الذي شهده هذا المجال الحيوي من مجالات الحضارة الإنسانية .

* * *

الفَصْلُ الثَّاني

تَرْبِيَةُ الأَطْفَالِ وَتَعْلِيمُهم

المبحث الأول

تربية الأطفال

عُنِيَ العربُ قبل الإسلام بأطفالهم عناية خاصة ، فكانوا يغرسون فيهم المُثل العربية الأصيلة كالكرم والنَّخوة والشجاعة والمروءةِ ومساعدة الضعيف . وكان أهل الحواضر يرسلون أطفالهم إلى البادية ليتلقوا هذه المبادئ من معينها الصافي ويتعلمون ، إضافة إلى ذلك ، الفصاحةَ ويمتلكون الجسم السَّليم الصحيح المُعافَى بما توفره أجواء البادية من مناخ سليم .

وحينما حرر العرب العراق ومَصَّروا الأمصار وعَمَّ القُطر الأمن والاستقرار اعتنى المسلمون عناية بالغة بتربية أطفالهم التربية العربية الإسلامية الكفيلة بتحقيق المثل العليا والقيم الأصيلة ، وتفننوا في ذلك وأبدعوا فيه ، وألفوا في عصور الازدهار الكتب الباحثة في أصول التربية السليمة القويمة التي تتفق في كثير من أسسها مع أحدث النظريات التربوية الحديثة كما يظهر ذلك في كتابات عدد من العلماء العراقيين أمثال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) والغَزالي (ت ٥٠٥ هـ) وغيرهم .

وقد ضمن الغزالي كتابه القيم « إحياء علِوم الدين » وكتيبه النفيس « أيها الولد » الكثير من الآراء التربوية التي تمثل في حقيقتها صدًى لما كان شائعًا من أفكار تربوية في العراق في عصره والعصور السابقة فاستحقت لأجل ذلك أن نتبين مساراتها العامة .

يَرَى الغزالي أنَّ الطفل أمانة عند والديه عليهما أن يسعيا إلى تنشئة النشأة الصحيحة ويطبعاه بطابع المُثل العليا ، لأنه في جوهره خلق قابلاً للخير والشر

جميعًا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين فالخير إنما يكتسب بالتربية والشر كذلك يكتسب بالتربية فعلى الأبوين أن يُحسنا تأديب ولديهما[١] . ولما كانت الأسرة هي الأساس في تربية الطفل فقد طالب الغزالي أن يكون الأبوان مثلا يُقتدَى في تصرفاتهما وأفعالهما ، وكذلك كل من يربي ، لما عُرف عن الطفل من ظاهرة التقليد والمحاكاة ، يقول الغزالي : « فإذا عرفتَ أن الأخلاق الحَسَنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح إذ الطبع من الطبع يسرق الشر والخير جميعًا »[٢]

وهو يعتقد أن التربية ضرورة فردية للإنسان مهما ارتقى ، كما أنها ضرورة اجتماعية لابد منها في تكوين المجتمع الإسلامي ، ويورد في هذا المضمار قول الحسن البَصْري : « لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم » أي إنهم بالتعليم يُخْرجون الناسَ من حد البهيمية إلى حد الإنسانية[٣] .

ويبين الغزالي حقوق كل فرد وواجباته المترتبة عليها ويسميها الآداب ، فيرى ضرورة الأخذ بها في كل تصرف من التصرفات : في البيت ، وفي المدرسة ، وعلى مائدة الطعام ، وفي المجالس ، وعند الحديث ، فيبين أن من واجب الوالد أن يغرس في نفس ولده حب الاعتدال في الانفاق « فلا يعوّده التنعم ولا يُحَبِّب إليه الزينة وأسباب الرّفاهية فيضيع عُمره في طلبها »[٤] ، وعلى الأب أن يعود ولده

---

(١) إحياء علوم الدين : ٣ / ٧٢ (ط . دار المعرفة ، بيروت) .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٥٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ١١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣ / ٧٢ .

بين آوانة وأُخرى على « الخشونة في المفرش والملبس والمطعم »[١] بحدود مقبولة ومعقولة لتستبين للولد قيم الأشياء . ويرى ضرورة تعليم الطفل وتربيته على آداب المائدة فعليه أن : « لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى مَن يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيدَ المضغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعوَّد الخبز القفار في بعض الأوقات ... ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم »[٢] .

أما الآداب الاجتماعية في المجلس فيجدر بالطفل أن يتعودها كأن : « لا يبصق في مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفّه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ، ويُعَلّم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبن له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأسًا صادقا أو كاذبًا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويُمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويعُود لأن لا يتكلّم إلا جوابًا وبقدر السؤال ، وأن يُحسن الاستماع مهما تكلّم غيرُه ممن هو أكبر منه سنًا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه »[٣] . كما « ينبغي أن يُعَلَّم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنًا من قريب أو أجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم »[٤] .

---

(١) إحياء علوم الدين : ٣/ ٧٣ .
(٢) المصدر نفسه : ٣/ ٧٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٣/ ٧٣ .
(٤) المصدر نفسه : ٣/ ٧٣ .

لقد تناول الغزالي التربيةَ من جوانبها المتعددة : جسمية وأسرية واجتماعية . وأكد في كل مناسبة أهمية البناء الأخلاقي ، لما للأخلاق من أثر في تكوين الشخصية الصالحة ، وعلى والد الطفل أن ينتبه الانتباه كله فيراقب ولده من أول أمره « فإن الصبيّ مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كَذَّابًا حسودًا سَرُوقًا نَمَّامًا لحوحًا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة »[1] .

وينبغي للوالد أن يرسل ولده إلى أماكن التعليم ليتعلم : « القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم » مما يهذب نفسه ويصقلها ويؤهله لتلقي العلم المتخصص مستقبلا . وفي المدرسة ينبغي أن يُعَلَّم بأن « لا يتكبّر على العلم ولا يتأمّر على المعلِّم بل يلقي إليه زمامَهُ بالكُلّية في كل تَفْصيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المُشْفِق الحاذق »[2] . ويتعين على الطفل أن يتعلم في مكان التعليم ، وهو يقضي الوقت الطويل بين زملائه الطلبة ، أسلوب التعايش معهم بما يعوّده الحياة الفُضْلَى في المجتمع عند دخوله خضم الحياة فيحسن به أن لا « يفتخر على أقرانه بشيءٍ مما يملكه والداه أو بشيءٍ من مطاعمه وملابسه أو لَوْحِه أو دَوَاته بل يُعَوَّد التواضع والإكرام لكل من عاشَرَهُ والتلطف في الكلام معهم ويُمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئًا »[3] .

لقد أدرك الغزالي معنى التَّربية على أنها : توجيه وإرشاد واصطفاء وانتقاء ، وأدرك أن الأسلوب غير المباشر في التربية ضروري في بادئ الأمر ، فإذا ما أخفقَ لجأ إلى التربية المُباشرة ، فمن أمثلة الأسلوب غير المباشر أن يذم المُرَبي

---

(١) إحياء علوم الدين : ٣/ ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١/ ٥٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٣ / ٧٣ .

بين يدي الولد المراد تربيته : « الصبيُّ الذي يُكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل »[(١)] كما قدمنا قبل قليل .

كما أكد الغزالي أهمية الرياضة بفروعها المختلفة من حركة ومشي ولعب وضرورتها في تربية الطفل ونشاطه العام ، فطالب بأن « يُعَوَّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكَسَل »[(٢)] .

ويقول أيضًا : « وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب ؛ فإنَّ منع الصبي اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائمًا يميت قلبه ويُبطل ذكاءه »[(٣)] .

وفي الوقت الذي نجد فيه المدرسة التقليدية في عصرنا تهدف إلى أن يكتسب الطفل قبضة من المعارف والمعلومات نجد الغزالي وبقية التربويين العرب في العصر العباسي قد ذهبوا إلى ما ذهبت إليه أحدث النظريات الحديثة فيرون ضرورة ارتباط العلم بالعمل ، ويرون أن السعادة لا تُنال إلا بالعلم والعمل .

وقد أوضحنا فيما سبق أنَّ التربية العربية الإسلامية إنما قامت على دعامتين رئيستين مترابطتين ترابطًا عُضويًا هما : العلم النافع والعمل الصالح وأنَّ غاية العلم النافع هو الوصول إلى العمل الصالح .

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين : ٣/ ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣/ ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه .

المبحث الثاني

تعليم الأطفال

أما تعليم الأطفال فقد كان معروفًا على نطاق ضيق عند عرب ما قبل الإسلام ولاسيما في الحواضر العربية المشهورة مثل مكة ويثرب .

ومر بنا أنَّ الإسلام والنظام السياسي الذي نشأ في أحضانه شجعا على طلب العلم الذي يعتمد على أداتيه : القراءة والكتابة .

وترجم الرسول ﷺ أهمية إشاعة التعليم إلى واقع عَمَلي حينما طَلَب من بعض مُشركي قُريش ممن وقعوا في الأسر في موقعة بدر أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة عددًا من أبناء المسلمين . وقد عُرف المكان الذي يتعلم فيه الأطفال باسم (الكُتَّاب) وجمعها (كتاتيب) ، وهو مُشتق من التكتيب وتعليم الكتابة(١) ، وهي المهمة التي اضطلع بها أصلاً . وتشير النصوص التاريخية إلى وجود الكتاتيب على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الرَّاشدين(٢) .

وانتشرت الكتاتيب في العراق بعد تحرره انتشارًا واسعًا بحيث يشير الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) إلى انتشارها في القرى إضافة إلى المدن(٣) .

ولم تكن الدولة تتدخل في إنشاء هذه الكتاتيب أو الإشراف عليها ، بل كانت مؤسسات خاصة تعود إلى أصحابها وهم المعلمون ، فالرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخُلقه ، لذلك كان الناس يتخيرون المُعلمين أو

---

(١) تنظر لفظة : « كتب » في لسان العرب .

(٢) تنظر لفظة « أبجد » في تاج العروس للسيد الزبيدي .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٥١ .

الكتاتيب التي تحقق طموحاتهم في تعليم أولادهم وتربيتهم .

ويشير الجاحظ إلى اختلاف كبير في مستوى المُعلمين لاسيما بين مُعلمي المدن ومُعلمي القُرى . والظاهر أنَّ معلمي الكتاتيب العادية كانوا قليلي الثقافة ولاسيما أولئك الذين يعملون في القُرى والأرياف ، قال الجاحظ : « ومن أمثال العامة : أحمق من معلم كتّاب . وقد ذكرهم صقلاب ، فقال : وكيف يُرجى الرأي والعقل عند من يَرُوح على انثى ويغدو على طِفل ، وفي قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلمًا ولا راعي غَنَم ولا كثير القعود مع النِّساء ... والمعلمون عندي على ضَرْبين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المُرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكِسائي ومحمد بن المُستنير الذي يقال له قُطْرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حَمْقى ؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم ، فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القُرى فإن لكل قوم حاشية وسِفْلة فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف نقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفُقهاء والشُّعراء والخطباء مثل الكُميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبي رباح ، ومثل عبد الكريم بن أبي أمية وحُسين المُعلِّم وأَبي سعيد المُعلم ... وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروَى لصنوف العلم ولا أحسن بيانًا من أبي الوزير وأبي عدنان المُعلمين وحالهما من أَول ما أذكر من أَيام الصبا »[١] .

ومهما يكن من أمر فإنَّ المعنيين بالتربية الإسلامية كانوا يرون أنَّ معلم الكُتَّاب يكفيه قدر محدود من الثقافة العامة ، لكنهم شددوا على ضرورة معرفته

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٤٨ - ٢٥٢ .

بطرق سياسة الأطفال وسبر نفسياتهم ، وأن يكون دينًا ورعًا متزوجًا ، لأنهم لم يجيزوا للشبان المراهقين مزاولة هذه المهنة ، ورأوا أنَّ المعلم الجيد ينبغي أن تتوفر فيه جملة شروط من أبرزها :

١ـ أن يقصد من عمله التربوي والتعليمي وجه الله تعالى فيعمل على إصلاح ناشئة المُسلمين لا طمعًا في مال أو جاه .

٢ـ أن يكون مثلا يُحتذي في قوة اليقين بالله وإقامة شعائر الدين ، والتخلق بمحاسن الأخلاق ، والاعتناء بنظافة جسمه وثيابه ، ويتشبه بأهل الفضل والدين من معلمي الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الفضلاء ، وبذلك يؤدب طلابه بسيرته وعمله قبل تأديبهم بقوله وموعظته .

٣ـ أن يحب تلاميذه ، ويصونهم عن الأذى ما استطاع ، ويرحب بهم عند حضورهم ، ويسأل عنهم إذا غابوا عنه ، ويغفر لهم خطاياهم ، ويعذرهم على هفواتهم ، فإن أراد تنبيههم على ذنوبهم أدبهم أولا بالتلميح ، فإن لم يتعظوا صَرَّح لهم ، فإن لم يفدهم ذلك وَبَّخهم .

٤ـ وعليه مراعاة مستوى فهم طلابه فيخاطبهم على قَدر فهمهم وإدراكهم ، فلا يعلم أحدًا ما لا يحتمله ذهنه أو سنه ، ويحرض طلابه على الاجتهاد ، ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم ، فمن وجده حافظًا أثنى عليه ، ومن وجده مقصرًا عَنَّفه ، وأن يطرح عليهم أسئلة يختبر بها أفهامهم ، ويأمرهم بالاعتدال في الدراسة إذا ما أسرفوا فيها وظهر ذلك على أجسامهم وفي وجوههم ، وإذا ما رأى من أحد ضجرًا أو نحوه أوصاه بالراحة والاستجمام(١) .

---

(١) ينظر : إحياء علوم الدين ١ / ٤٧ فما بعد ، ورسالة الأدب في الدين للغزالي ٤٣ ، وتذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ، وتعليم المتعلم للزرنوجي ٢٢ وغيرها .

وكان يعاون المُعلم في مهمته شخص يدعى (نقيب) يكون عادة أقل مرتبة من المعلم اشترط فيه أن يكون فطنًا كيسًا دَرِبًا يرتب الأطفال على أقدارهم ، وينبّه الغافل منهم ، ويأمرهم بحُسن الاستماع والانتباه ، وغالبًا ما يتولى معاونة المعلم في تلقين الأطفال وإعادة ما حفظوه .

وكانت الكتاتيب تتكون من بناية بسيطة غالبا ما تكون إلى جانب المساجد ونادرا ما تكون فيها لعدم تحرز الأطفال من الوساخة والضوضاء ، وربما كانت في بيت المُعلم في بعض الأحيان ، وهي لا تعدو في أغلب الأحيان حجرة أو حجرتين متواضعة الفَرْش والأثاث تتناسب مع عدد الأطفال(١) .

يذهب الطفل إلى الكُتّاب عادة عند السنة الخامسة أو السادسة من عمره ويبقى فيه خمسة أعوام أو ستة على الأكثر . ويكون دوامه عادة من الصباح الباكر إلى وقت الظهر ثم يعود إلى بيته للغداء أو يتغذي في الكتاب ، ثم يبدأ دراسته ثانية بعد صلاة الظهر حتى العصر(٢) .

وكان أولياء أمر الطلبة يتفقون مع المُعلمين على الأَجور ويشارطونهم على مقدارها أسبوعيًا أو مُشاهرة أو مسانهة ، ولم تكن هذه الأُجور مرتفعة بل كانت ضئيلة جدًا مما جعل مستوى معلمي الكتاتيب المعاشي منخفضًا .

ويُذكر أنَّ ابن السِّكّيت كان في مبدأ أمره يُعلم مع أبيه صِبْيان العامة ببغداد ، ففشل أَن يحصل من ذلك على رزق مناسبٍ مما دفعه إلى تعلم النحو(٣) .

ومع أنَّ المدرسين المسلمين لم يقبلوا في الغالب أجرًا على تدريسهم

(١) الشيزري : نهاية الرتبة ١٠٣ ، وابن عبد البر : جامع بيان العلم ٩٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ / ٣٩٨ .

(٣) الأهواني : التعليم في رأي القابسي ١٧٧ .

لاسيما في المدة التي سبقت قيام المدارس ، كما سيأتي بيانه ، فإنَّ مُعلمي الكُتّاب كانوا يمتهنون التعليم ويتعيشون منه بسبب قضائهم الوقت الطويل مع الأطفال وملازمتهم معظم الوقت مما لا يتيح لهم إيجاد مصدر آخر للرزق .

وقد دفع هذا الأمر بعض المياسير إلى إقامة الكتاتيب المجانية التي توفر التعليم إلى غير القادرين من الأطفال ، ولاسيما الأيتام .

وكان من أبرز ما يتعلمه الطفل في الكتاب هو القُرآن الكريم ، فكانت العناية به جد شديدة ، وكانوا يبدأون في إقراء الطفل القرآن بجملته قراءة درج ، ثم يعمدون إلى تحفيظه إياه كله أو ما تَيَسّر منه . وقد يبدأ المعلم بإعراب بعض آياته وتفسير غريبه تفسيرًا وجيزًا وطريقة ترتيله وتجويده . كما يعلمهم مبادئ العُلوم والآداب التي تعينهم على تفهم معاني كتاب الله . على أن المهمة الرئيسة للكُتّاب هي ، أضافة لما ذكرنا ، تعليم القراءة والكتابة . ويشير الجاحظ في رسالته عن المعلمين إلى ما ينبغي أن يتعلمه الطفل في الكتاب فيقول : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السّلامة من فاحش اللّحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشِعرٍ إن أنشدَهُ وشيءٍ إن وصفه ، وما زادَ على ذلك فهو مَشْغلة عما هو أولَى به ، ومذهل عما هو أرد عليه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق والمعنى البارع »[١] ويشير الغَزالي إلى ضرورة تعلم الطفل في المكتب : القُرآن ، وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الأحكام الدينية ، فالشعر على أن يحفظ الطفل من الأشعار التي ليس فيها ذكر العشق وأهله[٢] .

(١) الجاحظ : رسالة في المعلمين (ضمن رسائل الجاحظ) : ٣٣ (ط . العلمية) .

(٢) إحياء علوم الدين : ٣ / ٧٣ .

أما الخلفاء والأمراء والمياسير فكانوا يستقدمون المعلمين إلى قصورهم لتأديب أولادهم وتعليمهم وتهيأتهم لما ينتظرهم من مهام جسيمة ، ويسمى من يقوم بذلك (المؤدِّب) ، يقول الجاحظ : « وقد اشتق اسم المؤدب من الأدب ... والأدب إما خلق وإما رواية ، وقد أطلقوا اسم المؤدّب على العموم »[١] .

وكان المؤدبون يُختارون من بين العلماء النابهين حسب قدرة ولي أمر الطِّفل ، لذلك نعم المؤدبون بالغِنَى والرَّخاء إذ كانت تدفع لهم المبالغ الضخمة . وكان الأب يُشارك عادة في وضع المنهاج الذي يلائم ولده وما يبتغيه له من مستقبل ، لذلك كان ولي الأمر يوصي المؤدب بما ينبغي أن يتلقاه الطفل . وقد حفظت لنا كتب الأدب كثيرًا من هذه الوصايا التي تشير إلى المناهج التي اتبعت في تربية هؤلاء الأطفال وتعليمهم ، فمن ذلك وصية الرشيد لعلي بن المبارك الأحمر مؤدِّب ولده الأمين وفيها يقول : « إنَّ أمير المؤمنين قد دفعَ إليكَ مُهجة نَفْسه وثَمَرةَ قَلْبه ، فَصَيِّر يدكَ عليه مبسوطة وطاعَتهُ لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القُرآن وعَرِّفه الأخبار ، ورَوِّه الأشعار ، وعَلِّمه السُّنن ، وبَصِّره بمواقع الكَلام وبدئه ، وامنعهُ من الضِّحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد ، إذا حَضَروا مجلسَهُ ، ولا تَمُرَّنَّ بكَ ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذِهْنه ، ولا تُمْعن في مُسامحته فيستحلي الفراغَ ويألفه ، وقَوِّمه ما استطعتَ بالقُرب والمُلاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »[٢] .

---

(١) رسالة في المعلمين ٢٩ .

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوئ ٦١٧ .

ولقد انتشرَ التعليمُ في العراق انتشارًا عظيمًا ولا سيما مبادؤه الأولى من معرفة القراءة والكتابة ، فكان كل رب أُسرة يُعْنَى بتعليم أولاده بنفسه ، أو يستقدم لهم المؤدِّبين ، أو يرسلهم إلى الكُتَّاب ، ولا أدل على ذلك من انتشار الكتاتيب في القُرى والأرياف وكثرتها . ومع أنَّ القُرآن الكريم والسنة النبوية لم ينصا على إلزامية التعليم لكن الإسلام دعا إليه وحَضَّ عليه . وناقش الفقهاء منذ زمن مبكر في حُكْم التعليم بصورة عامة هل هو مُباح أو واجب ، فإذا كان واجبًا فمن هو المكلَّف به وما هو نوع التَّعليم الذي يجب أن يكلف به . على أنهم أجمعوا أنَّ معرفة القُرآن واجبة لضرورتها في الصلاة وأن الوالد مكلَّف بتعليم ابنه القُرآن والصَّلاة ، فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلم أبناءه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكُتَّاب لتلقي العلم بالأجر ، فتعليم الضَّروريات من الدين أمرٌ لا يختلف عليه اثنان . ومعلوم أنه لا يُتوصل إلى تعليم تلك الضَّروريات الدينية إلا بتعلم مبادئ القراءة والكتابة في الأغلب ، وبتعلم تلك المبادئ ودراسة القرآن يخرج المرء من الأُمية ، فهذا هو الذي يفسر لنا سعة انتشار الكتاتيب ذلك الانتشار الكبير .

* * *

المبحث الثالث

تعليم البنات

ذكر المؤرخون جمْهرة صالحة من نساء العرب ممن عرفن القراءة والكتابة عند ظهور الإسلام ، منهن : عائشة بنت سَعْد بن أبي وقاص ، وأم كلثوم بنت عُقبة ، وهِنْد بنت أبي سُفيان ، وحَفْصة بنت عُمر بن الخطاب ، وكريمة بنت المِقْداد ، والشّفاء بنت عبد الله العَدَوية ، وغيرهن[١] .

وقد عني رسول الله ﷺ بتعليم النساء وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري : « قالت النّساء للنبي ﷺ : غَلَبَنَا عَليك الرِّجَالُ فَاجعل لنا يومًا مِن نفسك ، فَوَعَدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن »[٢] .

وأشار القابسي في رسالته عن التعليم أنَّ « من مُحسن النَّظر ألا يُخلط بين الذُّكران والإناث ، وقد قال سَحْنون : أكره أن يُعَلِّم الجواري (وهن البنات) ويُخْلَطن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن »[٣] ، فهذا النص يشير صراحة إلى تعلم البنات منذ زمن مبكر وأنهن كن يقصدن الكتاتيب في بعض الأحيان ، وإشارة سَحْنون والقابسي إلى ضرورة الفَصْل بين البنات والبنين تشير إلى انتشار عناية المسلمين بتعليم البنت .

وقال الجاحظ : « وكان يقال : لا تعلموا بناتكم الكتاب ، ولا تروهن الشعر ،

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٤٥٨ .

(٢) البخاري (١٠١) .

(٣) التعليم في رأي القابسي ٣١٤ .

وعلموهن القرآن ، ومن القرآن سورة النور »[١] . وهذا النص على الرغم من سلبيته الظاهرة فإنه يدعو إلى إزالة شيء موجود منتشر فضلاً عن أنه دعا إلى تعليم البنت القُرآن الكريم . وقال القابسي : وأما تعليم الأُنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها ، فأما أن تعلم الترسل والشعر وأشبهه فهو مخوف عليها[٢] .

ولعل الخشية على البنات من فساد أخلاقهن ، ومن معلمي السوء ، هي التي جعلت كثيرًا من الناس يحجمون عن تعليم بناتهم مع الصبيان . والظاهر أنه كانت هناك كتاتيب خاصة بالبنات ، فضلا عن أن الآباء وأولياء أمورهن كانوا يعنون بهن فيعلموهن في بيوتهم .

ويزعم الدكتور أحمد شلبي أنَّ البنت لم تلتحق بالكتّاب صبية ، ولم تجلس في حلقة الرجال شابة ، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق أحد أقاربها ، أو بمؤدب يدعى لها[٣] . وأقل ما يقال عن هذا القول أنه حكم عجل لم يقم على استقراء للنصوص وتتبع لطبيعة الحركة الفكرية العربية الإسلامية ، فقد بينا قبل قليل أنَّ الإمامين سحنون والقابسي طالبا بفصل البنات عن البنين عند التعليم مما يدل على وجود ظاهرة حاولا علاجها . ثم إن الإسلام لم يمنع تعليم المرأة أو عدم حضورها الدروس حتى مع الرجال ، بل حض على تعليمها لمعرفة دينها وصلاح حياتها . وقد احتل النساء في كتب الرجال والتراجم حيزًا جيدًا قلما خلا منهن كتاب ، فقد خصص ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) مجلدًا خاصًا للنساء من كتابه « الطبقات الكبرى » ، وخصصت الكتب المؤلفة في

---

(١) البيان والتبيين : ٢ / ١٨٠ .

(٢) التعليم في رأي القابسي : ٢٩٢ .

(٣) التربية الإسلامية ٣٣٢ (ط ٧ ، ١٩٨٢) .

علماء بغداد وأعيانها قسمًا خاصًا بالنساء مثل تاريخ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) والذيل عليه لابن السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) والذيل على تاريخ ابن السمعاني لابن الدُّبيثي (ت ٦٣٧ هـ) و « التاريخ المجدد لمدينة السلام » لابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣ هـ) وغيرها . وقد أشارت هذه الكتب إلى قراءة مئات النسوة على عدد كبير من العلماء ومتعيني الرواة مما لا نجد مجالا للتفصيل فيه .

ويكفي لرد هذا الرأي الإشارة إلى عشرات من طباق السماعات التي دونها العُلماء على الكتب التي درسوها وسجلوا فيها أسماء الدارسين وبينهم أسماء عدد كبير من النساء[١] . فهذا دليل لا يقبل الشك يؤكد حضور النساء مجالس العلم مع الرجال لسماع الحديث والأدب والتاريخ وغيره .

ثم نجد لوحة رسمها الفنان العراقي يحيى الواسطي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ موجودة في نسخة شيفر من مقامات الحريري المحفوظة بباريس تظهر إحدى النساء المسلمات في أواخر الدولة العباسية وكأنها تعظ الناس أو تلقي محاضرة على بعض الفقهاء والفقيهات في أحد الجوامع في خلافة المستنصر بالله العباسي[٢] .

ويلاحظ بعد ذلك أنَّ كتب التراجم أشارت إلى حضور عدد من النسوة مجالس الحديث ، وسماعهن على الشيوخ ، وعَبَّرن عن تحملهن العلم بلفظة « حدثنا » ، وهي لفظة تدل على الحضور والمشافهة ، فمن ذلك مثلا لا حصرًا ما ذكره الخطيب ، قال : « خديجة أم محمد كانت تغشى أبا عبد الله أحمد بن

---

(١) تنظر مقدمتي لتهذيب الكمال ، ولتاريخ مدنية السلام للخطيب .

(٢) نشرها أستاذنا العلامة الدكتور ناجي معروف يرحمه الله في آخر كتابه عن « علماء المستنصرية » .

حنبل وتسمع منه ، وحدثت عن يزيد بن هارون ، وإسحاق بن يوسف الأزرق ، وأبي النضر هاشم بن القاسم . روى عنها عبد الله بن أحمد بن حنبل »[١] .

ثم روى الخطيب بسنده إلى عبد الله بن أحمد قال : « حدثتني خديجة أم محمد سنة ست وعشرين ومئتين وكانت تجيء إلى أبي تسمع منه ويُحدِّثها »[٢] .

فأين صلة القَرابة بين هذه العالمة وبين من روت عنهم ؟ .

نعم ، لم يكن انتشار التعليم والعلم بين النساء كما هو انتشاره بين الرجال ، وهو أمر طبيعي في مجتمع ذلك الزمان ، لكننا لو قارنا نسبة المتعلمات في العراق حتى نهاية العصر العباسي بأية دولة من دول العالم آنذاك لما وجدنا بلدًا بلغ ما بلغه العراق في تعليم المرأة ، وظهور مئات العالمات في شتى صنوف العلم . ويكفي أن نذكر هنا طالبًا قَدِم من الإسكندرية للدراسة في بغداد ، هو وجيه الدين أبو المظفر منصور بن سليم الهمداني الإسكندراني المتوفى سنة (٦٧٣ هـ) فمكث فيها ست سنوات دَرَس خلالها على أكثر من عشرين عالمة بغدادية ذكر دراسته عليهن في كتابه الذي ذيل به على كتاب « إكمال الإكمال » لابن نُقطة البغدادي[٣] .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) تاريخ مدينة السلام : ١٦ / ٦٢٢ (بتحقيقنا) .

(٢) المصدر نفسه : ١٦ / ٦٢٣ .

(٣) طبع كتابه باسم « ذيل تكملة الإكمال » بتحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي ، ونشرته جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤١٩ هـ ، وكنت قد أفدتُ من نسخته الخطية في تحقيقي لكتاب « التكملة » للحافظ المنذري سنة ١٣٨٥هـ ، وعلى النسخة التي جلبتها من القاهرة آنذاك كتب عنه عمي العلامة الدكتور ناجي معروف يرحمه الله كتابه : عالمات بغداديات .

الفصل الثالث

المؤسسات التعليمية

تمهيد

مرت المؤسسات التعليمية في العراق بمرحلتين رئيستين ، أولاهما : المؤسسات التي سبقت المدارس ، وتمثلت المرحلة الثانية بتأسيس المدارس في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

ويلاحظ آثر ذي أثير أنَّ كثيرًا من العُلماء كانوا يستقبلون الطلبة في منازلهم ، ولدينا من الأخبار ما يشير إلى أن بيت العالم كان من أكثر الأمكنة التي يعقد فيها العالم مجالسه العلمية ، حيث يشير عدد من أسانيد الروايات وطباق السماعات إلى هذا الأمر سواء أكان ذلك قبل تأسيس المدارس أم بعدها ، فكان طالب العلم يتتبع العالم أينما كان في البيت ، أو السوق أو في محل عمله ، أو في أي مكان يتواجد فيه . وهذا في رأينا هو أصل نظام التعليم في العراق وغيره ، وهو مبحث متشعب لكنه يوضح من غير شك كيف أنَّ العديد من العُلماء قد درس عليهم عشرات الطلبة وتخرجوا بهم ولم يدرسوا في أية مؤسسة تعليمية ، يظهر ذلك من الإحصائيات التي ـ كن إجراؤها على الأماكن التي تلقى فيها الطلبة علومهم ، وقد جربا ذلك على بعض الكتب التي تناولت تواريخ العلماء حتى بعد قيام المدارس فكانت النتيجة مصداق هذا الرأي . ومع أن المؤرخين لم يذكروا دائما الأماكن التي أخذ فيها الطالب علمه عن أستاذه لكن مئات النصوص تشير إلى ما ذهبنا إليه ، فقد كان محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ) : « إذا حدَّثهم عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع »[١] ، وقال الخطيب في ترجمة محمد بن الحُسين

---

(١) الخطيب : تاريخ مدينة السلام ٢ / ٥٦٢ .

الشيباني العطار المعروف بقطيط (ت ٤٣٤ هـ) : « سمعتُ منه في دار أبي القاسم الأزهري »[١] ، وقال أيضًا : « أخبرنا أبو يَعْلَى محمد بن الحسن البَصْري في دار القاضي أبي القاسم التنوخي »[٢] ، وقال : « كتبتُ عنه في سُوق السَّقَط »[٣] ، وروى بسنده إلى إسماعيل بن محمد الصَّفَّار ، قال : « أنبأنا محمد بن إدريس أبو بكر الشَّعْراني شيخٌ كتبتُ عنه في دُكّان أبي العباس بن إسحاق »[٤] وقال محمد بن بشار البَصْري المعروف بِبُنْدار : « قد كتبَ عني خمسة قُرون وسألوني الحديث وأنا ابن ثمان عشرة فأستحييت أن أحدثهم في المدينة فأخرجتهم إلى البُستان وأطعمتهم الرُّطب وحدثتهم »[٥] وقال الخطيب في ترجمة محمد بن حمدان بن صالح الضَّبِّي : « روى عنه أبو القاسم ابن الثلاج عن الحسن بن عَرَفة حديثين مُنكرين وذكر أنه حدثه بهما من حفظه في بُسْتان حفص »[٦] ، وقال أبو العباس أحمد بن محمد بن القاسم ابن مُحرز : « سألت يحيى بن معين عن أبي بلال شيخ كان ببغداد كتبنا عنه في طريق باب الأنبار .. »[٧] ، وأخرج الخطيب في ترجمة محمد بن إسماعيل البخاري أنَّ حاشد بن إسماعيل قال : « وكان أهل المعرفة من أهل البصرة

---

(١) تاريخ مدينة السلام : ٣ / ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢ / ٦٢٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٢ / ٦٣٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٢٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٤٥٩ .

(٦) المصدر نفسه : ٣ / ١٠٢ – ١٠٣ .

(٧) سؤالات ابن محرز (٢٥٢) ، وتاريخ الخطيب ٢/ ٤٥٤ .

يَغْدُون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسونه في بعض الطَّريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه ، قال : وكان أبو عبد الله عند ذلك شابًا لم يخرج وجهه »(١) . قال علي بن محمد بن سعيد الرَّزار : « حدثنا أبو حنيفة محمد بن حنيفة بن ماهان القَصَبي إملاءً في سنة سبع وتسعين ومئتين ببغداد في دَرْب الديزج »(٢) وقال ابن الدُّبيثي في ترجمة أبي الفرج محمد بن عُمر بن مكّي : « وفي المحرم سنة سبع عشرة وخمس مئة خرج الإمام المُسْترشد بالله أبو منصور الفَضْل متوجها لحرب دُبيس بن صدقة الأسدي فاستؤذِنَ لأبي الفرج هذا في قِراءة أحاديث الحَسَن بن عَرَفة عليه بسماعه من أبي القاسم بن بيان ، فأَذِن ، فقرأ عليه وهو سائر بقُرب المدائن ، وسمع بقراءته أبو الفتوح حمزة بن عليّ صاحب المَخْزن وأبو علي بن المطلب وغيرهم من الخدم والحواشي »(٣) .

* * *

---

(١) الخطيب : تاريخ ٢ / ٣٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ١١٦ .

(٣) ابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدينة السلام ١ / ٤٦٠ - ٤٦١ (بتحقيقنا) .

المبحث الأول

التعليم في الجوامع والمساجد

يطلق لفظ « المسجد » على المكان الذي تقام فيه الصلوات الخمس ، فإذا أُقيمت صلاة الجمعة في أحدها أُطلق عليه « مسجد جامع » ، وربما قيل « الجامع » بحذف كلمة « مسجد » للتخفيف . وقد أقامَ المُسلمون آلاف المساجد فكانت مدينة بغداد وحدها تضم في القرن الخامس الهجري ثلاثة آلاف مسجد تقريبًا . أما « المساجد الجامعة » فكان من المفروض أن لا يكون في المدينة الواحدة أكثر من « مسجد جامع » واحد لأن من غاياتها الاجتماع واتفاق الكلمة واستظهار النفوس ، فلم يجز الفقهاء الأولون التعدد عند الزحام بل سعوا إلى التوسع دون التعدد . ولم يختلف الناس أنَّ الجُمُعة لم تكن تُصَلَّى في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين إلا في مسجدٍ واحد ، فحينما يقال : مسجد الكوفة أو مسجد البصرة أو نحو ذلك فإنما يراد به « المسجد الجامع » دون المساجد الأخرى .

وحينما أنشأ المنصور مدينة بغداد جعل مسجدها الجامع ملاصقًا لقصره المعروف بقصر الذَّهب ، وكانت مساحته أربعة آلاف ذراع مُربع ، ثم جدَّده الرشيد سنة ١٩٢ هـ - ١٩٣ هـ ، ووسع مُفْلح التُّركي المصلى سنة ٢٦٠ هـ ، ثم أضاف إليه المعتضد سنة ٢٨٠ هـ قصر المنصور ، وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المُسَقَّطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت .

وكان المهدي قد بني في الجانب الشرقي جامع الرصافة سنة ١٥٩ هـ ، فكانت الجُمعة تقام في بغداد في جامع المنصور الذي يُعرف بجامع المدينة ، وجامع المهدي الذي يُعرف أيضا بجامع الرُّصافة ، واستمر ذلك إلى وقت خلافة المعتضد .

وقد جوز العلماء ذلك حينما عَدُّوا الجانبين الغربي والشرقي مدينتين مستقلتين . إلا أنَّ توسع بغداد العمراني ، وازدحامها بالسكان ، وتنقل المناطق المزدحمة بالسكان ، جعل من الصعوبة الاستمرار في إقامة الجُمعة في هذين الجامعين فقط . فلما أعاد المعتضد الخلافة إلى بغداد اتخذ مقامه في الجانب الشرقي وأمر بعمارة القصر المعروف بالحَسَني على دجلة في سنة ٢٨٠ هـ ، وهو القصر الموسوم بدار الخلافة ، وأمر ببناء مَطامير في القصر وجعلها محابس للأعداء ، وكان الناس يصلون الجمعة في الدَّار وليس هناك رسم لمسجد ، وإنما يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة ويخرجون عند انقضائها . فلما استخلف المُكْتفي في سنة ٢٨٩ هـ أمر بهدم المَطَامير التي كان المعتضد بناها وأمر أن يُجعل موضعها مسجد جامع في داره يصلي فيه الناس ، فعمل ذلك ، وصار الناس يَبَكّرون إلى المسجد الجامع في الدار فلا يُمنعون من دخوله . وعرف هذا الجامع بجامع القَصْر . فاستقرت صلاة الجمعة ببغداد في المساجد الجامعة الثلاثة المذكورة إلى وقت خلافة المتقي الذي أقام صلاة الجمعة في جامع بَرَاثا سنة ٣٢٩ هـ . كما وَسَّع أبو أحمد الموسوي سنة ٣٧٩ هـ مسجدًا صغيرًا بقطيعة أم جعفر المعروفة بالزُّبيدية التي كانت تقع شمالي المدينة المدورة وراء خَنْدق طاهر ، واستأذن الطائع لله في أن يجعله مسجدًا يُصَلَّى فيه في أيام الجمعات ، واحتج بأنه من وراء خندق يقطع بينه وبين البلد ، فيصير ذلك الموضع بَلَدًا آخر ، فأَذِنَ في ذلك ، وأُقيمت فيه الجمعة . وبنى أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي مسجدًا بالحربية في أيام المطيع لله ليكون جامعًا ، فمنعَ المطيعُ ذلك ، ثم وافق القادر سنة ٣٨٣ هـ على إقامة الجمعة فيه بعد أن استفتي الفقهاء ، قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ :

« فأدركتُ صلاة الجمعة وهي تقام ببغداد في مسجد المدينة ، ومسجد الرُّصافة ، ومسجد دار الخلافة ، ومسجد بَرَاثا ، ومسجد قطيعة أم جعفر ... ومسجد الحَرْبية ، ولم تزل على هذا إلى أن خرجتُ من بغداد في سنة إحدى وخمسين وأربع مئة ، ثم تعطلت في مسجد بَرَاثا فلم تكن تُصَلّى فيه »(١) .

وحينما زارَ ابنُ جُبير بغداد في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وجد الجُمْعة تقام في أحد عشر جامعًا . وكانت الجمعة تقام في البَصْرة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في ثلاثة مساجد جامعة .

قامت المساجد والجَوَامع بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة ، فكان الرسول ﷺ وخلفاؤه يُعَلِّمون الناس في جامع المدينة أمور دينهم ودنياهم ، وكان تميم الدَّاري يقص في هذا المسجد في عهد عمر بن الخطاب ويعظ النَّاس كل يوم جُمُعة ، فلما استخلف عثمان استأذنه أن يقوم في الناس مرتين ، فأذن له(٢) .

ولما كانت المساجد هي بيوت الله التي يقصدها المسلمون للصلاة فإنَّ كل مُسلم يستطيع الذهاب إليها من غير استئذان ويستفيد ممن يُعَلِّم فيها ، لذلك ازدهر التعليم فيها ازدهارًا عظيمًا .

وكان من الطبيعي أن تختص المساجد والمساجد الجامعة بالدراسات

---

(١) تاريخ مدينة السلام ١ / ٤٢٧ - ٤٣١ ، وخطط بغداد ، للسنر ، ترجمة أستاذنا الدكتور صالح العلي ١١١ - ١١٥ و ١٩٠ - ١٩٣ ، وراجع البحث الممتع الذي كتبه لسنر عن الوحدات المدنية والجوامع ملحقًا بكتابه المذكور ٣٠١ - ٣١٠ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

الدينية وما يتصل بها من علوم العربية ، لصلتها الوثيقة بالعبادة ، لذلك وجدنا هذه المؤسسات تختص بالعناية بهذه العلوم فقط من علوم قرآن وحديث وفقه وعقائد ولغة ونحو وأدب وشعر .

وإذا كانت بعض العلوم الأخرى قد وجدت في هذه المؤسسات فهو أمر شاذ لا يقاس عليه ولا يعتد به .

لقد عُني العرب المسلمون عند تخطيط مدنهم بجعل المسجد الجامع في وسط المدينة ليسهل على الناس الوصول إليه ، وقد أصبحت المساجد الجامعة في كل من البَصْرة والكُوفة من أعظم مراكز الحركة الفكرية خلال القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني الهجري حيث أُصِّلَت فيها علوم العرب والإسلام وشهدت نمو الحركة الفكرية وتطور العلوم العربية ، ومنها انتقلت إلى المدن الأخرى مثل واسط وبغداد وغيرهما .

وكانت أبرز الجوامع ببغداد ثلاثة ، أولها : جامع المنصور في الجانب الغربي ويُعرف بجامع المدينة (المدورة) ، وثانيهما : جامع المهدي ويُعرف أيضًا بجامع الرصافة ، وآخرها : جامع القَصْر ويُعرف بجامع الخليفة .

ونظرًا لسعة المساجد الجامعة وفخامتها فقد احتوت على حلقات علم متنوعة تُعقد في جهات مختلفة منها ، وتتخذ أسماءها إما من اسم شيخ الحَلْقة كأن يقال : حَلْقة ابن البناء (ت ٤٧١ هـ) وحلقة ابن زَبيبا (ت ٤٦٠ هـ) وحَلقة الخطيب (ت ٤٦٣ هـ) وحلْقة رزق الله التَّميمي (ت ٤٨٨ هـ) وحَلْقة نُور الهُدى الزَّينبي (ت ٥١٢ هـ) وحَلْقة الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) وهلم جرًا ، وإما تأخذ اسمها من اسم العِلْم الغالب عليها كأن يقال « حَلْقة أهل الحديث » و « حَلْقة النحويين » ونحو ذلك .

كانت منزلة صاحب الحَلْقة ومكانته تتحدد بسعة علمه وقدرته على إيصاله إلى الحاضرين ، فكانت الحلقات تتسع وتضيق استنادًا إلى تلك المنزلة ، وقُدرة صاحبها على اجتذاب الجمهور ، فكانت حلقات العُلماء الكبار حافلة يحضرها مئات الناس بينما كان صاحب الحَلْقة الذي لا يتمتع بمنزلة مرموقة لا يحضر عنده إلا القليل ويتجنبه الطلبة ، قال أبو بكر البَرْقاني في أبي الفَتْح الأزدي المَوْصلي (ت ٣٧٤ هـ) : « رأيته في جامع المدينة وأصحاب الحديث لا يرفعون به رأسا ويتجنبونه »[١] .

غير أن حلقات المحدِّثين كانت أحفل من حلقات الفُقهاء نظرًا لإقبال الناس على الحديث في تلك الأعصر وحُبّهم الاستكثار منه ، ولأنه لا يحتاج مثل الفقه إلى أُسس معرفية سابقة ، فالفقه ذو صبغة تخصصية .

وكانت الحَلْقة إما تختص بموضوع واحد أو تشتمل على عدة موضوعات فقد تكون خاصة بالقُرآن[٢] ، أو الفقه على مذهب معين[٣] ، أو الحديث[٤] ، أو المناظرة[٥] وهلم جرًا ، أو تتضمن الفتوى والمناظرة مجموعتين[٦] ، أو الحديث والفتوى[٧] ، أو الفتوى والوعظ والحديث

---

(١) الخطيب : تاريخ ٣ / ٣٧ .

(٢) الخطيب : تاريخ ١٦ / ١٠٧ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ٦ / ٣٩٠ ، وابن رجب : الذيل ١ / ٧٤ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ٦ / ٣٩٠ .

(٥) ابن رجب : الذيل ١ / ١٣٩ .

(٦) المصدر نفسه : ١ / ٣٩ .

(٧) المصدر نفسه : ١ / ٧٨ .

جميعا[١] ، واتخذ أبو عبد الله الخلنجي الصوفي « حَلْقة في جامع المدينة يتكلّم في الرياضات وعيوب النفس وآفات الأعمال »[٢] . كما كانت بعض الحلقات تخصص للعوام بحيث تتناسب ومداركهم وثقافتهم القليلة ، قال ابن عقيل : « كان من أصحاب القاضي أبي يعلى أرباب الحلق : ابن البازكردي وابن زبيبا فقيهان مفتيان ولهما حلقتان بجامع الرصافة يقصان الفقه شرحًا للمذهب على وجه ينتفع به العوام »[٣] .

ومن الممكن أن تكون للعالم الواحد أكثر من حلقة ، فقد كانت لأبي بكر أحمد بن سَلْمان النجاد (ت ٣٤٨ هـ) المحدث المشهور يوم الجمعة حلقتان قبل الصلاة وبعدها إحداهما للفتوى والأخرى لإملاء الحديث[٤] ، وذكر ابنُ شافع أنه كانت للحسن بن أحمد ابن البناء البغدادي (ت ٤٧١ هـ) حلقتان : إحداهما بجامع المنصور وسط الرواق ، والأخرى بجامع القَصْر حيال المقصورة[٥] .

وكانت لأبي الحسن الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) حلقة في جامع المنصور يناظر فيها قبل الصلاة ، ثم يعظ بعدها ، وكان يجلس يوم السبت عند قبر معروف ، وفي باب البصرة ، وبمسجد ابن الفاعوس[٦] .

---

(١) ابن رجب : الذيل : ١ / ٣٣ .

(٢) الخطيب : تاريخ ١٦ / ٥٨٣ .

(٣) ابن رجب : الذيل ١ / ٧ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ٦ / ٣٩٠ .

(٥) ابن رجب : الذيل ١ / ٣٣ ، ١١٥ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ١٠ / ٣٠ .

وكان جامع المنصور يتميز من بين جوامع بغداد الأخرى في المنزلة السامية التي يحتلها في نفوس العلماء وطلبة العلم ، فكان الخطيب يذكر أنه لما حج شرب ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات كان منها أن يملي الحديث بجامع المنصور(١) ، ودخل بعض الأكابر جامع دمشق أو صور ورأى حَلْقة عظيمة للخطيب والمجلس غاص يسمعون منه الحديث ، فصعد إلى جانبه وكأنه استكثر الجَمْع ، فقال له الخطيب : « القعود في جامع المنصور مع نفر يسير أحب إليَّ من هذا »(٢) ، وقد استجاب الله سبحانه لسؤال الخطيب فكانت له حَلْقة عظيمة في جامع المنصور ، وكان أصحاب الحلق في هذا الجامع من كبار المحدثين والفقهاء واللغويين والنحويين والأدباء .

أما عدد الحلقات في هذا الجامع فكان كبيرًا حيث يشير أبو الفضل الزجاج أنه كان بجامع المنصور حين قدوم الشافعي بغداد سنة ١٩٥ هـ إما نيّف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة(٣) ، وهو عدد كبير في هذا الزمن المبكر .

وتشير بعض النصوص إلى أن من يريد أن تكون له حلقة بجامع المنصور كان يتعين عليه استئذان الخليفة في ذلك ، وكان المسؤول عن ذلك هو نقيب النقباء ، فكان الخليفة يطلب منه ذلك ، فقد اتصل الخطيب البغدادي بالخليفة القائم وطلب الإذن بأن يملي الحديث بجامع المنصور « فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن لهو في ذلك »(٤) وهو أمر يشير إلى ما كان يحتله هذا

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٦٤ (ط . مرجليوث) .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء : ١ / ٢٥٤ .

(٣) الخطيب : تاريخ ٢ / ٤٠٩ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٤٧ .

الجامع من مكانة متميزة باعتباره من أعظم جوامع مدينة السلام . على أنه ليس لدينا من النصوص ما يشير إلى سريان هذا الأمر في بقية جوامع بغداد منذ عهد مبكر أو في جوامع البصرة والكوفة في الأعصر الأولى ، كما ليس لدينا ما يؤكد ضرورة الحصول على مثل هذا الإذن في الجوامع الأخرى .

وقد يخلف الابن أباه في حَلْقته إن كان الابن من العلماء ، فقد كانت للحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء البغدادي حَلْقة بجامع المنصور وأخرى بجامع القصر ، فلما توفي سنة ٤٧١ هـ خلفه فيهما ولده أبو نصر محمد[١] (ت ٥١٠ هـ) . غير أن من يكون صاحب حَلْقة ينبغي أن تكتمل علومه ويعرف بين الناس بالبراعة والإتقان والتميز ، ويبلغ من العمر سنا معقولة تؤهله لمثل هذا الأمر الخطير ، لذلك كانت كتب التراجم تشير إلى بعض الأذكياء النابغين الذين عقدوا المجالس في سن صغيرة من باب المدح والتعجب بقدراتهم الفائقة ، فكان يذكر مثلا أنَّ محمد بن الحسن الشيباني كان له مجلس في مسجد الكوفة وهو ابن عشرين سنة[٢]

لقد كانت منزلة صاحب الحَلْقة تشبه إلى حد كبير مكانة أستاذ الكرسي في الجامعات الحديثة ، وكان لبعضهم بالفعل كراسي يجلسون عليها ، وكان من مظاهر إلغاء الحلقة رفع كرسي صاحب الحَلْقة من الجامع .

أما المساجد ، وهي التي لا تقام فيها الجُمَع وتكون صغيرة عادة ، فكانت تختص في علم واحد من العلوم الدينية أو ما يتصل بها ، فكان بعضها يختص

---

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ١١٥ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥٦٤ .

بتعليم القرآن الكريم[١] ، أو رواية الحديث[٢] ، أو اللغة[٣] ، أو تدريس الفقه على مذهب معين ، وهي كثيرة .

فقد كان لكل مذهب فقهي مدرس خاص في مسجد معين ، مثل مسجد أبي عبد الله الجرجاني الذي درس فيه أبو عبد الله الدامغاني ، ومسجد أبي بكر الخوارزمي ، ومسجد الصيمري بدرب الزرادين الذي دَرَّس فيه إلياس بن ناصر (ت ٤٦١ هـ) . ومنها مسجد عبد الله بن المبارك الذي كان في قطيعة الربيع بالجانب الغربي من بغداد وهو الذي درس فيه أبو حامد الإسفراييني وتلميذه أبو الفتح الرازي ، ومسجد ابن اللبان بدرب الآجر عند نهر طابق بالجانب الغربي أيضًا ، ومسجد أبي الطيب الطبري ، ومسجد أبي إسحاق الشيرازي بباب المراتب من الجانب الشرقي ، ومسجد أبي بكر الشامي بقطيعة أم الربيع بالجانب الغربي . ومنها أيضًا : مسجد ابن البقال بباب الطاق ، ومسجد القاضي أبي يعلى عند نهر معلى ، ومسجد ابن زبيا في حريم دار الخلافة ، ومسجد أبي الفتح ابن المني بالمأمونية وهذه الأخيرة كلها في الجانب الشرقي . أما في الجانب الغربي فقد اشتهر مسجد ابن القواس في باب البصرة[٤] .

ويتبين مما تقدم أن كثيرًا من هذه المساجد كانت تعرف بأسماء المدرسين فيها . والحق أنني قلما وجدت عالمًا كبيرًا تعاني هذه العلوم من غير أن يكون

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٥ / ١٣١ ، وابن رجب : الذيل ١ / ٩٦ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٣ / ٣٠ .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٤ / ٢٣٤ .

(٤) ينظر عن مزيد من هذه المساجد الفهرس الذي عملته للمجلد الأول من تاريخ مدينة السلام ص ٦١٢ – ٦١٤ ، وذيل تاريخ مدينة السلام لابن الدبيثي ٥ / ٤٤٧ – ٤٤٨ .

له مسجد ، فكان هناك مسجد للكسائي[١] ومسجد لدعلج[٢] ، ومسجد لمحمد بن جرير الطبري[٣] ، ومسجد للشريف أبي جعفر عبد الخالق بن عيسى الهاشمي[٤] ، ومسجد للشريف الزيدي[٥] ... الخ .

إذن كان المدرس يختص بمسجد يُدرس فيه ، وقد يكون هو الذي يشيده ، أو يكون مشيدًا قبله فيعرف به . وربما كان المسجد قسما منعزلاً عن داره ملاصقًا له ، فالمدرس في المسجد غالبًا ما يسكن بدار مجاورة لمسجده ، ويتولى الإمامة فيه أيضًا .

وكان المدرس يستمر في التدريس بالمسجد مدى الحياة مادام قادرًا على القيام بهذه المهمة ، فقد ذكر ابن الجوزي أن أبا الوفاء طاهر بن الحُسين القواس (٣٩٠ - ٤٧٦ هـ) « لازم مسجده المعروف بباب البصرة لا يبرح منه خمسين سنة »[٦] .

وكان يخلف المدرس عادة أحد تلامذته النجب ممن لازمه مدة طويلة وتخرج به ، فكان أبو محمد عبد المنعم بن حمد " اجسرائي الحنبلي المتوفى سنة ٦١٢ هـ ممن « تفقه ببغداد ... على الفقيه أبي الفتح نصر بن فتيان ابن المني ... ودرس في مسجد شيخه أبي الفتح بعد وفاته »[٧] ، وتولى شافع بن

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٤ / ٢٤٣ .

(٢) الخطيب : تاريخ ١٢ / ٢٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٢ / ٥٥١ .

(٤) ابن رجب : الذيل ١ / ١٠٦ .

(٥) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٣٦ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ٩ .

(٧) المنذري : التكملة ٢ / الترجمة ١٤٠٣ ، وتاريخ ابن النجار ، الورقة ٣٠ (ظاهرية) .

صالح بن حاتم الجيلي البغدادي (ت ٤٨٠ هـ) التدريس بمسجد شيخه أبي جعفر عبد الخالق بن عيسى الهاشمي (ت ٤٧٠ هـ) بدرب المطبخ من شرقي بغداد[١] : ثم تولى التدريس به بعد شافع تلميذ آخر من تلامذة الشريف أبي جعفر هو أبو الفتح محمد بن علي بن محمد الحلواني[٢] المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، ثم تولى التدريس به أولاد شافع « حتى عُرف المسجد بهم »[٣] ، مما يدل على أن بعض الأبناء كانوا يتولون التدريس بمساجد آبائهم إذا كانوا من أهل العلم المؤهلين لذلك .

وكانت بعض المساجد تحوي مكتبات فخمة غالبًا ما تتأتى من إيقاف صاحب المسجد كتبه عليه ، كما كان بعض العلماء يوقفون كتبهم في مثل هذه المساجد ، فقد أوقف الشريف أبو الحسن عليّ بن أحمد بن محمد العلوي الزَّيدي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ كتبه على مسجده الذي بناه بدرب دينار[٤] ، وأوقف الشيخ الزاهد أبو الخير صبيح بن بكر العطاري النصري (ت ٥٨٤ هـ) كتبه في مسجد رفيقه الزيدي[٥] . وذكر ابن النجار في تاريخه أنَّ أبا الخطاب عُمر بن محمد بن عبد الله العُليمي الدمشقي قدم بغداد سنة ٥٥٩ هـ وصارت له صحبة مع الشريف الزيدي فعاهد أبا الحَسَن الزيدي وصبيحًا النَّصْري أن يوقف كتبه وأجزاءه ويرسلها إلى بغداد لتكون في المسجد المذكور ، فلما توفي بدمشق سنة ٥٧٤ هـ أوصى إلى

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ٤٩ .
(٢) المصدر نفسه : ١ / ١٠٦ .
(٣) ابن رجب : الذيل ١ / ٤٩ .
(٤) ابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدنية السلام ٤ / ٣٩١ .
(٥) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٣٥ .

أخيه أبي الفضل عبد الله (ت ٥٩٨) بإنفاذ الكتب ، فأنفذها ، ووصلت بغداد بعد وفاة الزيدي فتسلمها صبيح[١] . كما أوقف العلامة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) كتبه على هذا المسجد وسلمها للشيخ عز الدين ابن الأثير المؤرخ المعروف ليحملها إلى هناك[٢] .

وقد ترك لنا ابن الجوزي نصًا نفيسًا عن التدريس في المساجد ، أنا مورده لأهميته البالغة ، فقد قال في ترجمة أبي عليّ الحَسَن بن إبراهيم الفارقي (٤٣٣ - ٥٢٨ هـ) : « من أهل مَيّافارقين .. تفقه بها على أبي عبد الله محمد بن بيان الكازروني - وكان صاحب المحاملي - فلما توفي الكازروني قصد أبا إسحاق الشيرازي في سنة ست وخمسين فتفقه عليه ، قال : فنزلت في خان حذاء مسجد أبي إسحاق بباب المراتب وكان يسكنه أصحاب الشيخ ومن يتفقه عليه ، فإذا كثرنا كنا حوالي العشرين ، وإذا قل عددنا كنا حوالي العشرة ، وكان الشيخ أبو إسحاق يذكر التَّعْليقة في أربع سنين فيصير المتفقه في هذه الأربع سنين فيها مستغنيًا عن الجلوس بين يدي أحد ، وكان يذكر درسًا بالغداة ودرسًا بالعَشِي . فلما كانت سنة ستين عبرتُ إلى الجانب الغربي إلى الشيخ أبي نصر ابن الصباغ فقرأت عليه « الشامل » ثم عدتُ إلى أبي إسحاق فلازمته إلى حين وفاته . سمع أبو علي الحديث ... وولي القضاء بواسط وأعمالها وسكنَها إلى حين وفاته وكان آخر عُمره يقول لأصحابه إذا حَضَرُوا الدرس : كَرَّرتُ البارحة الرُّبع الفُلاني من « المهذب » وكررت بارحة الأول الربع

---

(١) ابن الدبيثي : ذيل ٤ / ٣٤٢ - ٣٤٣ ، وابن النجار : التاريخ المجدد ، الورقة ١٣٢ (باريس) .

(٢) الدمياطي : المستفاد ، الورقة ٧٨ ، والمنذري : التكملة ٣ / الترجمة ٢٢٥٦ .

الفلاتي من « الشامل »[١] .

يتبين من هذا النص أنَّ الدراسة ترتبط بالأستاذ الذي يدرس عليه الطالب ، وليس بمكان الدراسة ، فقد بدأ أبو علي الفارقي دراسته على شيخ من أهل بلده هو أبو عبد الله محمد بن بيان الكازروني الشافعي ، فقرأ عليه القرآن ، لكنه لم يُكمل عليه الدراسة الفقهية حيث توفى الكازروني سنة ٤٥٥ هـ[٢] وكانت وفاة الأستاذ تمثل صعوبة كبيرة للطالب ، إذ لابد له أن يبدأ من جديد على أستاذ آخر ، ويتعين عليه أن يبحث عنه ويُسافر إليه عند الضرورة .

إنَّ الدراسة الفقهية في المساجد تشبه إلى حد بعيد الدراسة الجامعية الأولية في عصرنا ، حيث كان يتعين على الطالب أن يكون قد قطعَ شَوْطًا في تلقي المعارف العامة وألم بطرف جيد منها يؤهله لمثل هذ الدراسة ، وغالبًا ما يكون عندئذ قد بلغ حدود العشرين من عُمره تقريبًا ، فقد قدم الفارقي للدراسة على أبي إسحاق الشيرازي وقد بلغ الثالثة والعشرين ، ولعله صرف مدة في الدراسة على شيخه الكازروني . وقد قدم أبو عبد الله الحسين بن الحسن المقدسي الحنفي من الشام لدراسة الفقه ببغداد وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره[٣] ، وقدم صائن الدين هبة الله بن الحسن أخو الحافظ أبي القاسم ابن عساكر من الشام وهو في الثانية والعشرين من عمره وبقي فيها مدة أربع

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ١٠ / ٣٧ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ١٠ / ٦٣ - ٦٤ .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ١١ / ٧٢٧ ، والعيني : عقد الجمان ١٦ / الورقة ١٤٧ (مصورة دار الكتب المصرية) .

سنوات[١] (٥١٠ - ٥١٤ هـ) وذكر ابنُ عقيل أنه طلب الفقه وهو في السادسة عشرة من عمره[٢] ، للتدليل على خارق ذكائه وفطنته .

أما عدد الطلبة فلم يكن ثابتًا في جميع المرحلة الدراسية التي يقضيها الطالب ، وسبب ذلك كما يظهر هو تخلف بعض الطلبة ، أو تركهم الدراسة ، أو مجيء طلبة جدد .

ومع أنه ليست لدينا معلومات عن تقسيم الطلبة إلى مراحل ، فمن المعقول أن يقسم الشيخ طلبته إلى مراحل ، وإلا فكيف يمكن لمبتدئ أن يتابع مع من قضى سنتين أو ثلاثًا في الدراسة ؟ ولعل التقسيم الذي عُرف في المدارس فيما بعد إلى مراحل كان معروفًا في دراسة المساجد أيضًا . ومن الجدير بالملاحظة أن عدد الطلبة القليل نسبيًا يتيح للمدرس فُرصة كبيرة للعناية بطلابه ، كما يوفر فرصًا أفضل للطلبة أنفسهم في التعمق بالمناقشة والمساءلة .

ويتبين من النص السابق أنَّ مدة الدراسة هي أربع سنوات ، وهي المدة التي يكمل فيها المدرّس المنهج المقرر الذي يعده بنفسه على شكل « محاضرات » تعرف بـ « التعليقة » . وتشمل هذه التعليقة جميع المادة التي جمعها المدرس ليلقيها على الطلبة بحيث يلم الطالب عند دراستها بجميع المادة الفقهية على مذهبه . وقد انتشر في هذا العصر تأليف التعاليق ، فكان المدرسون يدرسون تعليقتهم أو تعليقة وضعها أحد كبار علماء مذهبهم ، أو يلخصونها من تعاليق العلماء . أما حجم « التعليقة » فالظاهر أنه كبير بحيث يكفي كل هذه المدة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٣١١ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ١٢ / ٣١٠ .

(٢) ابن رجب : الذيل ١ / ١٤٢ .

الطويلة ، وقد كانت لأبي علي يعقوب بن إبراهيم العُكْبَري البَرْزَبيني تعليقة في الفقه في عدة مُجلدات ملخصة من تعليقة شيخه القاضي أبي يَعْلَى[١] ، وبذلك نفهم أن تعليقة أبي يعلى كانت ضخمة .

وكان المدرس يلقي في كل يوم درسين ، درسًا في الصباح ، وآخر في المساء ، فيما عدا أيام الجُمع .

أما سكن الطلبة الغُرباء فإنهم عادة يجدون لهم خانًا مجاورًا يتخذونه سكنًا لهم ، إذ لم تكن في المساجد أماكن للسكنى .

وهذه الخانات إما عامة يقوم الطالب بدفع أُجرة عن سكناه فيها ، وإما خاصة مما ينشؤه المحسنون من المياسير لتكون وقفًا على طلبة العلم ، فمن ذلك مثلا الخان الذي أنشأه التاجر دعلج بن أحمد بن دعلج في شُويقة غالب عند قَبْر سُريج الفقيه الشافعي ، وأوقفه على طلبة العلم من أصحاب الشافعي[٢] كما كان هناك خان في قطيعة الرَّبيع قد خصص لسكنى الطلبة الغرباء ممن يتلقون الفقه الحنفي ، إذ يشير ابن الجوزي[٣] إلى احتراقه في حوادث الشغب التي وقعت سنة ٤٤٣ هـ .

وكثيرًا ما كان بعض الطلبة يلازمون شيوخهم حتى بعد انتهاء مدة الدراسة المقررة ، للاستزادة من علمهم ووفاءً لهم ، أو ليحلوا محلهم في التدريس ، فقد أنهَى أبو علي الفارقي دراسته على أبي إسحاق الشيرازي سنة ٤٦٠ هـ ثم لازمه بعد ذلك ستة عشر عامًا إلى حين وفاة أبي إسحاق سنة ٤٧٦ هـ .

---

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ٧٥ .

(٢) الهمذاني : تكملة ١٨٢ .

(٣) المنتظم : ٨ / ١٥٠ .

وعلى الرغم من أنَّ الدراسة كانت مجانية حيث لم يكن أمثال هؤلاء المدرسين يأخذون أجرًا على تعليمهم ، فإن الطالب كان بحاجة إلى نفقات لمعيشته وسكناه ، وغالبًا ما كان أهله يقومون بذلك ، أو يقوم هو بعمل مناسب للحصول على مصدر رزق شريف يكفل معيشته ، وكان الكثير من الطلبة يشتغلون بنسخ الكتب .

على أنَّ معظم طلبة العلم كانوا في حالة فقر شديد ، بسبب انقطاعهم إليه ، وانصرافهم عن الاشتغال بغيره . وكانت الرحلات والأسفار في طلب العلم تتطلب أعباءً مالية مرهقة لأحوالهم ، فقد اضطر ربيعة الرأي (ت ١٣٦ هـ) إلى بيع خشب سقف بيته وأكل ما يلقى من الزبيب وعصارة التمر في مزابل المدينة[١] ، وكان شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠ هـ) يقول : « من طلب الحديث أفلس ، بعت طست أمي بسبعة دنانير »[٢] ، وقال الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) : « لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملك وغنى النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح »[٣] ، وقال محمد بن الحَسَن الشيباني (ت ١٨٩ هـ) : « ترك أبي ثلاثين ألف درهم فأنفقت خمسة عشر ألفًا على النحو والشعر ، وخمسة عشر ألفا على الحديث والفقه »[٤] . وقد « جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبري ومحمد بن إسحاق ابن خُزيمة ومحمد بن نصر المَرْوَزي ومحمد بن هارون الرُّوياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضَرَّ بهم

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ / ٩٧ .

(٢) الذهبي : سير ٧ / ٢٢٠ .

(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ٢٢٠ .

(٤) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥٦٢ .

الجوع »[١] . وقال محمد بن جعفر بن رميس القَصْري (ت ٣٢٦ هـ) : « بعت صف الحدادين ببغداد بثلاثة آلاف دينار فأنفقتها كلها على الحديث »[٢] . وقال ابنُ عقيل وهو يذكر أيام دراسته : « وعانيت من الفَقْر والنسخ بالأجرة »[٣] ، لذلك وصف الرّامهرمزي الراحلين في طلب العلم بأنهم : « شعث الرؤوس ، خلقان الثياب ، خمص البطون ، ذبل الشفاه ، شحب الألوان ، نحل الأبدان ، قد جعلوا لهم همًا واحدًا ، ورضوا بالعلم دليلاً ورائدًا ، لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ ، ولا يملهم منه صيف ولا شتاء »[٤] .

وقد رُويت بعض الأخبار عن هبات تقدمها الدولة لبعض العلماء أو طلبة العلم[٥] . غير أنَّ التقرب من السُّلطة الحاكمة لم يكن مستحبًا عند أهل العلم ، فكان سُفيان الثّوري يقول : « في جهنم واد لا يسكنه إلا القُرّاء[٦] الزوار للملوك » ، وقال أبو قلابة : « إياك وأبواب السلطان »[٧] .

أما العطايا التي كان يقدمها الخُلفاء وأرباب الدولة إلى مؤدبي أولادهم أو ندمائهم فهي لا تنطبق على جمهور العلماء وطلبة العلم ، لأنها حالات خاصة

---

(١) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥٥٢ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥١٥ .

(٣) ابن رجب : الذيل ١ / ١٤٣ .

(٤) المحدث الفاصل ٢٢٠ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ٤ / ١١ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٥٦ ، والرامهرمزي : المحدث الفاصل ٢١٠ ، وسير أعلام النبلاء ٦ / ١٢٠ ، ١٤٢ ، ٢٥٣ و ٧ / ٢١١ ، ٤٠٢ .

(٦) القراء : اصطلاح يطلق في ذلك الوقت على رجال الدين أو علماء الدين .

(٧) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ / ١٦٤ .

قياسًا بآلاف العلماء . على أنَّ الحاجة وانصراف البعض إلى العلم بالكلية وانقطاع مصادر رزقهم قد تضطرهم إلى تقاضي أجور زهيدة من بعض الطلبة ، لا سيما في العلوم المساعدة للعلوم الدينية كالعربية وآدابها . ومع ذلك فلم يكن الذي يأخذ أجرًا على علمه محمودًا عند العلماء ، وكان المحدثون يضعفونه وقلما يقبلون روايته . ومثل هذه الحالات النادرة لا يُقاس عليها ، ولكن بعض المستشرقين ومن تبعهم تقصدوا إظهارها .

وعلى العكس من ذلك وجدنا كثيرًا من العلماء يعيلون بعض طلبتهم النُّجُب ، فقد ذُكِرَ عن أبي حنيفة أنَّه كان يعيل تلميذه أبا يوسف . وذُكر عن الخطيب البغدادي أنه أعطَى أحد طلبته خمسة دنانير ذهبًا ليستعين بها على شراء الكاغد ، كما أنه أوصى بجميع ما يملك ، ومنها ثيابه ، لتصرف على طلبة الحديث ، وأوقف كتبه عليهم[١] .

وكان محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرزاق البغدادي المقرئ المعروف بأبي منصور الخياط (ت ٤٩٩ هـ) إمامًا بمسجد ابن جردة ببغداد بحريم دار الخلافة اعتكف فيه مدة طويلة يعلم الصبيان القُرآن لوجه الله تعالى ، ويسأل لهم وينفق عليهم ، فختم عليه خلق كثير[٢] . وقال ابن عقيل في حق شيخه أبي منصور بن يوسف : « فحظيت منه بأكبر حظوة ... وقام بكل مؤونتي وتحملي »[٣] وأمثلة ذلك كثيرة يمكننا أن نسوق منها العشرات .

وكان طلبة العلم يتعاونون فيما بينهم فيعين بعضهم بعضًا ، ويصرف غنيهم

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٥٢ ، ومقدمتي لتاريخ الخطيب ١ / ٥١ .

(٢) ابن رجب : الذيل ١ / ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ١٤٣ .

على فقيرهم في كثير من الأحيان . وهذا هو الذي يفسر لنا إنفاق بعض طلبة العلم ما ورثوه من أموال طائلة في سبيل العلم ، لا سيما عند انقطاع نفقة الطالب ، فمن أمثلة هذا التعاون ما رواه المحدث العظيم أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧ هـ) قال : « بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومئتين ثمانية أشهر ، وكان في نفسي أن أقيم سنة فانقطع نفقتي ، فجعلت أبيع ثيابي شيئًا بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة ، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء ، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيتٍ خالٍ ، فجعلت أشرب الماء من الجُوع ، ثم أصبحت من الغد وغدا عليّ رفيقي فجعلت أُطوف معه في سماع الحديث على جوعٍ شديد ، فانصرف عني ، وانصرفتُ جائعًا ، فلما كان الغد غدا عليّ فقال : مر بنا إلى المشايخ ، فقلت : أنا ضعيف لا يمكنني . قال : ما ضعفك ؟ قلت : لا اكتمك أمري قد مضَى يومان ما طعمت فيهما . فقال لي رفيقي : معي دينار فأنا أواسيك بنصفه ونجعل الآخر في الكراء فخرجنا من البصرة وقبضتُ منه النصف دينار »[1] .

وقال عمر بن حفص الأشقر : « كُنَّا مع محمد بن إسماعيل البخاري بالبصرة نكتب الحديث ، ففقدناه أيامًا ، فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان ، وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث »[2] .

---

(١) الخطيب : تاريخ ٢ / ٤١٧ ، المزي : تهذيب الكمال ٢٤ / ٣٨٦ وهي في تقدمة الجرح والتعديل ١ / ٣٥٩ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٢ / ٢٣٢ .

ويذكر التنوخي في « نشوار المحاضرة »[١] أن عددًا من طلبة الفقه أسهموا في إعالة أحد رفاقهم من الطلبة المحتاجين ، فأعالوه سنين طويلة .

كانت المساجد والجوامع من أبرز أماكن دراسة العلوم الدينية وما يتصل بها . وقد درج كثير من الباحثين على إضافة الرُّبط والزَّوايا إلى المؤسسات التعليمية ، ولكن الدراسة المتأنية تظهر أنَّ إسهام الرُّبط والزوايا في هذا المجال كان ضئيلاً جدًا ، بحيث لم نجد عالمًا تخرج في أحدها ، ذلك أنَّ الغاية من تأسيس هذه الأماكن إنما كان لإيواء الفُقراء والمتصوفة وليس لتلقي العلم .

نعم ، كانت هذه المراكز تُعْنَى بتدريب القوم على مُجاهدة النفس ، وربما عُنيت في بعض الأحيان بتعليمهم معارف القوم ، لكن أثرها في الحركة الفكرية لم يظهر بصورة تنبئ عن قيمة تعليمية واضحة فضلاً عن أن إنشاء الرُّبط والزوايا لهذه الأغراض لم يظهر إلا في فترة متأخرة ، ولم يكن منتشرًا بالعراق انتشاره ببلاد الشام ومصر وغيرهما .

* * *

---

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ٢ / ٢٧٥ – ٢٧٦ .

المبحث الثاني

أماكن دراسة العلوم الصرفة

حاول كثيرٌ من الباحثين المُحْدَثين البحث عن المؤسسات التعليمية التي عُنيت بتدريس العلوم غير الدينية مثل الفلسفة والرياضيات وعلوم الطبيعة والكيمياء ونحوها ، فأشاروا إلى أن بيت الحكمة ودور العلم وأسواق الوَرَّاقين والمستشفيات كانت هي المعاهد المعنية بتدريس هذه العلوم(١) .

والحق أنه ليس لدينا من النصوص الصريحة ما يشير إلى وجود معاهد متخصصة لتعليم هذه العلوم كما هي الحال في العلوم الدينية وما يتصل بها ، سواء أكان ذلك قبل تأسيس المدارس أم بعدها ، لا نستثني من ذلك سوى الطب الذي كان يدرَّس في المستشفيات (المارستانات) فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أنَّ الطبيب أبا الفرج كان يُقرئُ الطب في البيمارستان العضدي ببغداد(٢) ، وذكر أنَّ الطبيب إبراهيم بن بكّس كان يدرس الطب في هذا المارستان أيضًا(٣) . ولم نجد مدرسة أدخلت تدريس الطب في العراق ضمن مناهجها سوى ما ذُكر عن المدرسة المُستنصرية كما سيأتي بيانه ومناقشته .

إنَّ بيت الحكمة ودور العلم وأسواق الوَرَّاقين وأسواق الشعر كانت مراكز ثقافية مفتوح بعضها لبعض الناس ، ومفتوح بعضها الآخر لجميع الطلبة يقصدونها ويطالعون ما فيها من الآثار ، فيفيدون منها ، فهي ليست مؤسسات تعليمية أو مدارس أو جامعات ، كما يحلو للبعض تسميتها .

---

(١) طوطح : التربية عند العرب ٢٢ .

(٢) عيون الأنباء : ١ / ٢٣٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٢٤٤ .

وإذا كان الأمر كذلك فأين كان الطلبة يتلقون هذه العلوم ؟

إنَّ الدارس لطبيعة التعليم في تلك الأعصر المتمعن في دراسة كتب تراجم العُلماء يتبين له أنَّ دراسة هذه العلوم كانت تقوم على دعامتين رئيستين هما : الأستاذ والكتاب .

وقد بيّنا فيما سبقَ أنَّ الطالب كان يتتبع الأستاذ العالم أينما كان ، فيأخذ عنه العلم في منزله ، أو محل عمله ، أو في أي مكان يتواجد فيه . وتشير كتب التراجم إلى دراسة المترجمين على أستاذ أو مجموعة من الأساتيذ من غير أن تحدد المكان الذي درس فيه عليه . غير أن هناك إشارات تفيد معرفة بعض هذه الأماكن فقد ذكر الجوزجاني صاحب ابن سينا أنّه « كان يجتمع كل ليلة في دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرئ غيري من القانون نوبة ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير ، وقضينا على ذلك زمنًا »[(١)] . وكان الطبيب مهذب الدين أبو الحسن عليّ بن أحمد البَغْدادي الموصلي المعروف بابن هُبَل (ت ٦١٠ هـ) يجلس على سرير بمنزله بسكة أبي نجيح بالموصل ويقصده طلبة الطب[(٢)] .

أما الكتاب فهو أداة العلم ومنه تعلم الطلبة جل عُلومهم في هذه الميادين . وقد احتل في الأعصر التي نمت فيها هذه العلوم منزلة عظيمة ، فهو كما يقول الجاحظ « المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يَخفرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك العائدة »[(٣)] . ومن هنا تأتي أهمية خزائن الكتب ودكاكين الوَرّاقين

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ / ٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢ / ٣٣٤ – ٣٣٥ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ١٣ / ٢٤٤ .

(٣) الحيوان : ١ / ٤١ .

في رفد المتعلمين بما يحتاجونه إليه من مادة علمية .

إنَّ خلو بغداد من المعاهد المعنية بتعليم العلوم الصرفة والصنائع دفعت الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) إلى التفكير بتهيئة مثل هذا الأمر ، فلما أراد بناء قصره في الشَّماسية بالجانب الشرقي من بغداد « استزاد في الذَّرْع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد ، فسُئِلَ عن ذلك فذكر أنَّه يريده ليبني فيه دورًا ومساكن ومقاصير ، يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، وتجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علمًا أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ منه »[١] ولكن المعتضد مات قبل أن يستتم البناء[٢] فماتت هذه الفكرة ولم تنفذ .

وهذا النص يشير من غير شك أن الطالب كان يقصد أستاذ العِلْم أينما كان ليأخذ عنه علمه أو صناعته ، فإذا صح هذا الخبر فإنه يشير إلى تفكير المعتضد المتقدم بمحاولة بناء جامعة راقية تضم كل رؤساء العلوم النظرية والعملية .

* * *

---

(١) المقريزي : الخطط ٤ / ١٩٢ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ٥ / ١٤٤ .

المبحث الثالث

ظهور المدارس المستقلة

قد بينا فيما سبق أن الفقه كان يُدرَّس في المساجد دراسة متطورة متخصصة تستغرق أربع سنوات في الأغلب يتخرج فيها الطالب وقد ألم بهذا العلم . وأوضحنا أن المساجد قد اختصت بالعناية بنوع معين من علوم الإسلام ومنها الفقه على مذهب معين .

كما أظهرت الدراسة السابقة عناية حلقات العلم في المساجد الجامعة بجميع العلوم الدينية وما يتصل بها من علوم مساعدة .

ومن الجدير بالملاحظة أنَّ نظام التعليم استمر على هذه الصورة التي ذكرناها قرابة أربعة قرون ونصف القرن لم تنشأ خلالها مدرسة واحدة في العراق ، وهو الذي احتل الرِّيادة والسِّيادة في الحركة الفكرية العربية الإسلامية كل تلك المدة الطويلة فآتى الفكر العربي أُكله ، ونضجت الثقافة ، ووضعت قواعد العلوم وتطورت بما هو معروف مشهور عند الخاص والعام ، فلماذا أذن ظهرت المدارس ولماذا تأخرت إلى منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ؟

لقد تناول عدد من الباحثين المُحْدَثين هذا الأمر وحاولوا معرفة الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيام المدارس المستقلة ، فيقول الدكتور أحمد شلبي في كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » : « رغب الناس في الدراسات الإسلامية منذ ظهور الإسلام ، وكلما مرت السنون ازداد الناس إقبالاً على حلقات العلم حتى حفل كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا حلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس وأصوات الطلاب

يسألون ويناقشون ، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة ، فتحدث في المسجد شيئًا قليلاً أو كثيرًا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدَّى على وجهها ، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معا ... إذ أنَّ مهمة المساجد الأولى هي أن يصلي فيها الناس ويتعبدوا ولا يجوز أن تعطل الصلاة في المساجد مهما كانت الأسباب . وشيء آخر هو أن العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثيرًا من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال »[(١)] .

ويلاحظ على هذا التعليل آثر ذي أثير أنه لم يدرك طبيعة التعليم عند العرب المسلمين ، ويدل على نقص واضح في سَبْر تطور الحركة الفكرية ، وآية ذلك أنَّ التعليم في المساجد الصغيرة والمساجد الجامعة لم يكن يجري وقت إقامة الصلوات ولا يُمكن أن يكون ذلك لاشتراك الأساتذة والطلبة بالصلاة ولا يُعقل استمرارهم بالدَّرْس في أثناء إقامة الصلاة ، فكيف يؤدي إلى الإخلال بها ، وعدم تأديتها على وجهها ؟! وأين كان المسلمون عن هذه المشكلة كل هذه القرون الطويلة ؟ أما علم الكلام وعلم الجدل والمناظرة فقد فات الباحث أنها وجدت منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ، بل إنها لم تنشأ إلا في المسجد الجامع بالبَصْرة حيث وضع المعتزلة الأوائل أسسها وتطورت حتى بلغت أوج نضجها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري[(٢)] (التاسع

---

(١) تاريخ التربية الإسلامية ٩٥ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ١ / ١٠٦ ، وأحمد أمين : ضحى الإسلام ٣ / ٩٥ .

الميلادي) وأين هو عن كل تلك المناظرات التي جرت على عهد المأمون ومن بعده ؟ يضاف إلى ذلك أن المدارس إنما أُسست لغاية رئيسية هي تدريس الفقه وليس لمثل هذه العلوم .

لقد أدرك نظام الملك ضرورة التوصل إلى كَسْب العلماء وإزالة الجفاء المستديم بينهم وبين السُّلطة الدنيوية ، ذلك الجفاء المتمثل بابتعاد العلماء عن السلطان وكلامهم في كل من يقربه ، فقد روى ابن عبد البر بسنده إلى رسول الله ﷺ : « من أتى السُّلطان افتتن » وذكر أن سفيان الثوري كان يقول : « في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك » ، وقال أبو قلابة : « إياك وأبواب السُّلطان »[١] .

ومنذ أن استولى الأعاجم على مقاليد السلطة الفعلية ببغداد ، ولا سيما في عصر البويهيين ، استثنى العلماء الخلافة العباسية من هذه القطيعة ، بل حاولوا بكل الوسائل الدِّفاع عن الخلافة والخليفة باعتبارهما الملاذ الأخير في وجه التيارات الشعوبية الحاقدة المتطلعة إلى استعادة مُلْك قديم[٢] ، فاخترع الماوردي ما سماه بوزارة التفويض ـ والوزير فيها هو المتغلب الذي لا يحتاج إلى تفويض ! ـ وعين عليه : « مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية وتقليد لئلا يصير بالاستبداد كالإمام »[٣] ، وإنما فعل ذلك للإبقاء على شرعية الخلافة نظريًا انتظارًا ليوم تتقوى فيه فتطرد المتغلبين . ومع أنَّ السلاجقة

---

(١) جامع بيان العلم ١ / ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) تنظر مقدمة الأسد والغواص لصديقنا العلامة رضوان السيد ١١ .

(٣) الأحكام السلطانية : ٤٠ (موقع الإسلام) .

كانوا متغلبين أيضا فإنهم تظاهروا بتدعيم الخلافة وإشاعة احترامها وتوقيرها ومحاربة أعدائها في الشام[١] ، وحاولوا إنشاء جبهة داخلية بين علماء المذاهب الفقهية وإزالة القطيعة بينهم وبين الشافعية التي سَبَّبها وزيرُهم الكندري سنة ٤٤٥ هـ بنيسابور وأحدثت فتنة كبيرة انزعج منها كثيرًا زعيمهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيري[٢] .

ومن أجل كسب العلماء اتجه نظام الملك إلى احترام الخلافة العباسية احترامًا يتناسب ومنزلتها العظيمة في نفوسهم ، وعُني بتقريب العلماء من كل المشارب وقَدَّرهم تقديرًا عاليًا ، قال ابن الجوزي : « دخل على المقتدي فأذن له في الجلوس بين يديه وقال له : يا حَسَن ، رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك » : وقال : « وكان مجلسه عامرًا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة ، فقال له بعض كتابه : هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلاً ونهارًا ، فإن تقدَّمت أن لا يوصل أحد إلا بأذن ، وإذا وصل جلس بحيث لا يضيق عليك مجلسك . فقال : هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة ولو أجلست كلا منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك . وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القُشيري وأبو المعالي الجُويني يقوم لهما ويجلسهما في مسند ويجلس في المسند على حالته ، فإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي قام وأجلسه في مكانه وجلس بين يديه »[٣] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٨ / ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٨ / ١٥٧ - ١٥٨ .

(٣) المنتظم ٩ / ٦٥ .

وقال السُّبكي : « ومجالسه معمورة بالعلماء مأهولة بالأئمة والزهاد ، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وترداده إلى بابه وثنائهم على عدله وتصنيفهم الكتب باسمه ، يحضر سماطه مثل أبي القاسم القُشيري وأبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين وغيرهم »[١] . وهؤلاء هم أعلام الدنيا في عصرهم ، فإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ) الذي خَرَّج من التلامذة من صاروا أئمة الدُّنيا في زمانهم مثل الغزالي والخوافي وإلكيا الهراسي والحاكم النُّوقاني ، وصفه في مقدمة كتابه « الغُياث » بما لم يوصف به سلطان من قبل ، وأثنى عليه الثناء العاطر في عنايته بالدين وأهله[٢] . كما تقرب إلى أهل الحديث ، فكان يُملي الحديث بالري ويقول : « إني لستُ أهلاً لما أتولاه من الإملاء لكني أريد أن أربط نفسي على قطار نَقَلةِ حديث رسول الله ﷺ » ، وعُقد له مجلس الإملاء ببغداد ، فأملى مجلسًا بجامع المهدي بالرُّصافة وآخر بمدرسته ، وحضر إملاءه الأئمة[٣] .

وذكر إمام الحنابلة ابنُ عقيل أن نظام الملك ترك الناس بعده موتى : « أما أهل العلم والفُقراء ففقدوا العَيْش بعده بانقطاع الأرزاق »[٤] .

إنَّ هدف نظام الملك السياسي يظهر واضحًا من حكاية يذكرها الطرطوشي في « سراج الملوك » هي على الرغم من طابعها الروائي ذات قيمة تاريخية ، فتذكر الحكاية أن بعضهم وشَى بنظام الملك عند السلطان ملك شاه

---

(١) الطبقات الكبرى ٤ / ٣١٣ .

(٢) ينظر النص عند السبكي في طبقاته ٤ / ٣١٤ – ٣١٥ .

(٣) السبكي : الطبقات ٤ / ٣١٨ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ٦٨ .

قائلا أنه ينفق ست مئة ألف دينار سنويًا على مُريدي العلم والعلماء وأن هذه الأموال كافية لإقامة جيش تخيّم راياته على أسوار القُسطنطينية ، فعاتبه ملك شاه وطلب إليه أن يبرر تصرفه ذاك ، فأجابه : « .. أنا أقمتُ لك جيشًا يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشُك ليلاً قامت جُيُوش الليل على أقدامها صفوفًا بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ومَدُّوا إلى الله أكفهم بالدعاء ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون »[1] .

ومما تجدر ملاحظته أنَّ نظام الملك إنما قام بإنشاء هذه المدارس العديدة في مُدد متقاربة من أجل عُلماء مخصوصين بعينهم ، وليس من أجل بلد بعينه ، فأينما وجد عالمًا متميزًا يحتل منزلة مرموقة بين الجماهير بني له مدرسة فيذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٩ هـ عند افتتاح نظامية بغداد : « وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة جمعَ العميد أبو سعد القاشي الناس على طبقاتهم إلى المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك ببغداد للشافعية ، وجعلها برسم أبي إسحاق الشيرازي بعد أن وافقه على ذلك .. »[2] . ولما رفض أبو إسحاق التدريس بها عند افتتاحها وسَمِعَ نظام الملك بذلك « أقام القيامة على العميد القاشي ، وكتبَ إليه يلومه ويوبخه ويتهدده ويقول : لمن بنيت هذه المدرسة ألا لأبي إسحاق ؟ »[3] .

---

(١) سراج الملوك : ٢٣٧ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ٨ / ٢٤٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، الورقة ١١١ .

وكان أبو إسحاق أعظم علماء الشافعية ببغداد ومن أشهر المدرسين بها .
أما نظامية نَيْسابور فقد بُنيت برسم إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجُويني (ت ٤٧٨ هـ) فقعد يدرس بها ثلاثين سنة إلى حين وفاته كما نص على ذلك عبد الغافر في « السياق »[١] والسُّبكي[٢] بل عُرفت هذه المدرسة به حتى قال عبد الغافر في ترجمة أبي القاسم المظفر ابن إمام الحرمين : « لما أرادَ القعود للتدريس في مدرسة أبيه بعده منع من ذلك ... »[٣] .

إنَّ تقرب نظام الملك من العُلماء الأعلام وعنايته البالغة بهم هو الذي يفسر لنا قيامه بتوزيع مدارسه على معظم مدن العراق وخُراسان ، فبعد أن ذكر السُّبكي النظاميات التسع ببغداد والموصل والبَصْرة ونَيْسابور وبَلْخ وهَرَاة وأصبهان ومَرو وآمُل طَبَرستان قال : « ويقال : إن له في كُلِّ مدينة بالعراق وخُراسان مدرسة »[٤] .

وهكذا تمكن نظام الملك أن يجذب إلى جانبه عطف وتأييد أعلام العلماء في جميع المراكز المهمة التي امتد إليها سُلطانه فتحول كبار العلماء إلى مُدرسين في النظاميات المنشأة في مُختلف هذه المدن المهمة ، وتحقق غرضه ، ولو لمدة ، في إزالة الجفوة بين السُّلطة المتغلبة والعُلماء وصولاً إلى تثبيت كيان دولته وجلب الناس إلى جانبها وخلق جبهة قوية لمجابهة المخططات الباطنية ، ولا أدل على

---

(١) السياق ، الورقة ٤٨ .
(٢) الطبقات الكبرى ٥ / ١٧١ .
(٣) السياق ، الورقة ٨٩ .
(٤) الطبقات الكبرى ٤ / ٣١٣ - ٣١٤ .

ذلك من قيام الباطنية باغتياله سنة ٤٨٥ هـ[١] .

ولكن لم اختار نظام الملك أن يوقف مجموعة من المدارس لا مجموعة من المساجد كما كان يفعل بعض الواقفين قبله ؟ يجيب عن ذلك الأستاذ جورج مقدسي إجابة مقنعة حينما يقول : « إن المدرسة لا غير هي التي تلبي حاجته الخاصة ، فقد أنشأ مجموعة من المدارس لكي ينجز خططه السياسية خلال البلاد الواسعة في الامبراطورية الواقعة تحت سلطانه ، فالمؤسسة التي تعينه على تحقيق ذلك لابد أن تكون مؤسسة يمكن إنشاؤها دون أن تكون لها روابط من طبيعة دينية رسمية تجعلها تحت سلطة الخليفة كما هي الحال في الجامع حيث كان الخليفة هو المرجع في شؤون التوظيف ، وكما هي الحال في المسجد حيث كان مرد الإمام في مسؤولياته إلى الخليفة ، أو حتى كما هي الحال في مدرسة تمثل لجنة إدارتها جماعة مذهبية معينة . فاحتكار الإدارة في جامع أو مسجد أمر لا تطوله اليد . وإذن فإن المؤسسة التي اختارها نظام الملك أداة لتنفيذ خططه هي التي يمكن أن يحتفظ بأدارتها بعيدًا عن متناول سلطة الخليفة وهي سلطة لها مكانتها في نظر الناس يومئذ »[٢] .

وبعيد بدء نظام الملك بتشييد المدرسة النظامية قام أبو سَعْد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان بإنشاء مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بجوار مشهد أبي حنيفة ، فافتتحت قبل النظامية بأربعة أشهر ونصف تقريبًا بسبب سرعة بنائها .

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ١٠ / ٤٧٧ .

(٢) مجلة الأبحاث ١٤١ / ٤ / ٥١٠ .

وكان إنشاء النظامية ومدرسة أبي حنيفة فاتحة لقيام عدد من الموسرين والحكّام بإنشاء عدد كبير من المدارس على نمطها في الحقبة التالية ، فانتشرت ببغداد وغيرها مجموعة كبيرة من المدارس كما سيأتي بيانه .

وفي الوقت الذي انتشرت فيه المدارس التي يختص كل منها بتدريس فقه معين منطلقة من العراق ، ظهرت في العراق لأول مرة في تاريخ الحركة التعليمية مدارس مشتركة تَعْنَى بتدريس أكثر من فقه واحد منذ نهاية القرن الخامس الهجري ثم جمعت المذاهب الفقهية لأول مرة في تاريخ التعليم عند العرب في المدرسة المُسْتنصرية .

* * *

المبحث الرابع

خصائص المدارس ونُظمها

كانت للمدارس خصائص تميزها عن المؤسسات الأخرى من حيث استقلال البناء وهندسته ، وإيقاف الوقوف عليها ، وإلحاق الأقسام الداخلية بها ، وإدارتها ، وتقدير المعاليم (الرواتب) للمدرسين والطلبة والعاملين فيها ، وتعيين المدرسين ، وقبول الطلبة .

١ـ يلاحظ بادئ ذي بدء أنَّ المدارس إنما أُسست لتدريس الفقه على المذهب الذي نص عليه وقفها ، وأنه لم يقصد من تأسيسها تدريس علوم أخرى . على أنَّ طلبة الفقه بحاجة إلى علوم مساعدة كالحديث والعربية مما تتطلبه الدراسة الفقهية العالية ، فكان يعين فيها نحوي أو محدِّث لهذا الغرض . ونحن إن تمعنا بنص وقفية نظام الملك على المدرسة النظامية مثلاً وجدنا العبارة الآتية : « أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعًا ، وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن يكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعًا ، وكذلك شرط في المُدَرِّس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب ، وشرط أن يكون فيها مقرئ يُقرئ القُرآن ونحوي يدرّس العربية ... »[1] . فهذا النص يظهر أنَّ « المدرس » واحد ، وهو مدرس الفقه (أستاذ الكرسي) . ثم أن وجود إيوان (قاعة محاضرات) واحد في المدرسة الأحادية المعنية بتدريس فقه معين يشير إلى هذا الأمر . وكان الأمر كذلك حتى في المدرسة المستنصرية ، فعلى الرغم من الدراسة الواسعة النفيسة التي قام بها أستاذنا العلامة الدكتور ناجي معروف يرحمه الله لهذه المؤسسة

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ٦٦ .

ومحاولته الجادة إثبات أن هذه المدرسة كانت تضم أقسامًا علمية هي أقسام الفقه والقُرآن والحديث والعربية والطب ، فإن الحقائق تشير إلى أنها قد أسست أصلاً لتدريس فقه المذاهب الأربعة وأن شيخ الحديث والنحوي وملقن القُرآن والطبيب لم يكونوا مدرسين أساسيين فيها ، ودليلنا على ذلك :

أ – أنَّ هندسة البناء لم تشمل قاعة لشيخ الحديث ولا لصاحب العربية . أما دار القرآن فاسترجم الدكتور ناجي معروف أنها بناية مستقلة تجاور المستنصرية وتصاقبها ومكانها اليوم جامع الآصفية والسوق التي بين هذا الجامع وبناية المستنصرية الحالية(١) . وأما الطبيب فكان يجلس على صُفَّة تحت إيوان الساعات قُبالة المدرسة وليس في داخلها ، وأن هذه البناية قد شُيِّدت بعد افتتاح المدرسة بسنتين(٢) ، فهاتان البنايتان إذن ليستا من المدرسة .

ب – ويلاحظ أن الرَّواتب الشهرية التي خصصها الواقف لكل واحد من مدرسي الفقه والنَّاظر هي (١٢) دينارًا ، وأمين المكتبة عَشرة دنانير ، بينما كانت مخصصات شيوخ القُرآن والحديث والعربية والطبيب هي ثلاثة دنانير فقط ، في الوقت الذي كان طالب الفقه يتقاضي دينارين أي ثُلُثي راتب هؤلاء الشيوخ ، وهو أمر يدل على أنهم لم يكونوا مدرسين أساسيين .

٢ـ قامت هندسة جميع المدارس على تخصيص إيوان (قاعة المحاضرات) لمدارس الفقه في المدرسة الأحادية أو عدة أواوين على حسب عدد المذاهب الفقهية . كما رُوعي فيها تخصيص مساكن للطلبة وبعض العاملين فيها . فالمدرسة تتميز عن مدارس المساجد بهذين العنصرين الأساسيين وهما : المكان المخصص

---

(١) تاريخ علماء المستنصرية ١ / ٣٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٣٨٧ .

للدرس والمكان المخصص للسكن في وحدة معمارية وإدارية واحدة . ثم نجد بعد ذلك إضافات أُخرى حسب طبيعة المدرسة ورغبة منشئها ، فقد يخصص مكان لخزانة الكُتُب ، أو لمسجد داخل المدرسة ، أو مطبخ ، أو مرافق صحية ، أو قد تخصص فيها دار لسكنى المُدرس كما في مدرسة زمرد خاتون .

٣ـ كان الذي يقوم بإنشاء المَدْرسة عادة أحد العُلماء أو الموسرين من الحُكّام أو الأمراء أو التجار ، فيقدم المال اللاّزم لبنائها وتأثيثها ، ثم يوقف عليها الوقوف الدّارة من عقارات أو أراض زراعية ، وكان منشئ المدرسة يعهد بإدارة وقفها إلى واحدٍ أو أكثر ، وكثيرًا ما كان مُدرس المدرسة هو الذي ينظر في وقفها . وكانت أموال الوَقْف تُصرف على المُدَرِّس والعاملين في المدرسة وعلى طلابها حيث تقدم لهم الرواتب أو المأكل والمسكن المجاني أو كليهما . وقد كان حبس الأوقاف على المدارس من الخطط القويمة لضمان ديمومتها بعد وفاة المؤسس .

٤ـ وتلحق بالمدارس الكُبرى غالبا خزانة كتب ، يرتب لها ناظر ، يفيد منها المدرس والعاملون والطلبة كما في مدرسة أبي حنيفة ومدرسة ابن الجوزي ، والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية وغيرها .

٥ـ وكان المألوف أن يقوم منشئ المدرسة بتعيين مدرسها وناظرها والعاملين فيها ، ثم يؤول الأمر بعد وفاته إلى مدراء الوقف ، أو صاحب السُّلطة النافذة في الدولة . وتكون مدة تعيين المدرس في الأغلب مدى الحياة إلا إذا حدثت بعض التدخلات . وكان المدرس في بعض الأحيان هو الذي يتنازل عن تدريسه في مدرسة ما إلى أحد تلامذته النُّجُب بعد استشارة المتولي . وقد تُراعى اعتبارات أخرى في تعيين المدرسين كأن يتولى الابن مكان أبيه ، لاسيما

إذا كان المدرس هو صاحب المدرسة أو المتولي لها . وكان يُراعى في اختيار المدرس أن يكون ممن فاق أقرانه في علمه وتميز وأصبحت له منزلة علمية مرموقة تؤهله لمثل هذا المنصب ، كما كان يراعى في اختياره اتفاق مذهبه أو عقيدته مع شرط الواقف ، وإن كانت بعض هذه الأُمور تتجاوز لأسباب متعددة . وكان الاحتفال بتعيين مدرسي المدارس يتمثل بحضور العُلماء والفُقهاء وبعض أرباب الدولة ومن لهم علاقة بالمدرسة الدرس الافتتاحي الذي يلقيه المُدَرِّس ، وغالبًا ما يكون هذا الدرس متنوع المواد ليدلل به المدرس على تبحره في فنون العلم ، وغالبًا ما تولم الولائم بهذه المناسبة .

٦ـ أما العُمر المناسب الذي يؤهل الطالب للدخول إلى المدارس فكان يختلف من مدرسة إلى أخرى . غير أنَّ المدارس المشهورة كمدرسة أبي حنيفة والمدرسة النظامية والمستنصرية كانت لا تقبل إلا الطلبة الذين نالوا قسطًا كافيًا من المعرفة الأولية . وتشير الدراسات التي قمنا بها لعدد من الطلبة في هذه المدارس أن أعمارهم كانت تتراوح بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين عند دخولهم إليها ، وقد نجد شذوذًا عن هذه القاعدة إذ قد ينتسب بعض الطلبة الأذكياء قبل هذه السن بقليل ، أو قد يتأخر الطالب في طلب العلم الأولي فلا يدخل إلا بعد بلوغه سنًا متقدمة .

ولما كان الطالب يتقاضي قسطًا من وقف المدرسة فقد كانت عليه مجموعة من الالتزامات التي يتعين التمسك بها ، فكان عليه حضور الدروس بانتظام ، وتتبع موضوعاتها ، والمشاركة في المناظرات داخل الدرس ، وعدم الإخلال بأدب الدراسة ، ونحو ذلك .

* * *

المبحث الخامس

أهمية المدارس

كان العلماء وطلبة العلم يمتهنون المهن التي يعيشون منها في الأغلب ، لذلك كانت أحوالهم الاقتصادية سيئة من حيث العموم ، نظرا لانصرافهم إلى كسب العيش وتخصيص قسم كبير من وقتهم للدراسة . وقد بينا فيما سبق الحالة البائسة التي كان عليها طلبة العلم من شظف العيش والفاقة التي تفوق الوَصْف ، وما كانوا يكابدونه من مشقة في طلب العلم وتتبع الأساتذة في أماكن تواجدهم ، فكان إنشاء المدارس ووقف الوقوف عليها وتعيين المعاليم لمدرسيها وطلبتها يمثل إغراءً قويًا لمن لم تكن لديهم الوسائل للتفرغ للدراسة بما توفره لهم من مسكن ومأكل ، ففضَّلَ بعضُ طلبة العلم المدرسة على المسجد الذي لا يقدم المعاليم والإعانات ، ولا يتوفر فيه السَّكَن .

وقد نظمت المدارس التعليم بشكل أفضل مما كان عليه سابقًا ، فقد أصبح الطالب مستقرًا في مكان واحد لمدة طويلة يستطيع بها أن يتزود بعلم جم من غير عناء التنقل ، كما تخلّص من مشكلة وفاة الأستاذ قبل إكمال الدراسة المنهجية عليه حينما أصبحت المدرسة هي المسؤولة عن استقدام المدرس ، يضاف إلى ذلك أن استقرار أسس العلوم الفقهية في كتب معتمدة وتوفر تراث كتابي ضخم قد يسر اتخاذ المقررات التدريسية ، فكان المدرس يدرس كتابًا مقررًا لأحد العلماء الكبار أو يُعد محاضرات بموضوع الدرس تسمى « تعليقة » تشمل جميع المدة التي يقضيها الطالب في المدرسة .

غير أن كثيرًا من الباحثين بالغوا في الدور الذي قامت به المدارس في نمو الحركة الفكرية العربية ، فقد نشأت هذه الحركة وازدهرت واستقرت أسسها

وآتت أكلها في القرون التي سبقت المدارس . وقد ألف الخطيب البغدادي تاريخًا ضخمًا في عُلماء بغداد بلغ ستة عَشر مجلدًا وتضمن آلاف العلماء منذ تأسيس المدينة الى قريب وفاته سنة ٤٦٣ هـ وليس فيهم واحد تلقى علمه في مدرسة وفيهم صَفْوة العلماء الذين برعوا في العلوم الدينية والدنيوية ووضعوا أسسها . ثم إن هذه المدارس عُنيت بجانب واحد من جوانب المعرفة هو الفقه وأصوله ولم تمس حتى العلوم المساعدة له إلا مسًا خفيفًا ، في حين بقيت جميع العلوم الدينية والدنيوية الأخرى بعيدة عن المدارس . ومع أن بعض المعاهد القليلة جدًا قد عُنيت بعلوم القرآن والحديث والطب في عصور متأخرة كدور الحديث ودور القرآن وبعض المدارس الطبية ، فإنها في الحقيقة لم تسهم إلا إسهامًا ضئيلاً في نشاط الحركة الفكرية .

يضاف إلى ذلك أنَّ التعليم الحُر يوفر فوائد جمة ، حيث يستطيع المدرس فيه أن يدرس ما يشاء وما يراه ضروريًا ، وأن يُقْبِل عليه الطلبة بسبب منزلته العلمية فقط فيعتني بتطوير معلوماته ومعارفه التي تنعكس على طلبته ، على عكس المدرس في المدرسة التي صار يتخذ التدريس مهنة له ، وصار يتطاول على التدريس بالمدارس من ليس أهلاً لذلك ، لذلك روي عن بعض العلماء فيما وراء النهر أنهم لما بلغهم تأسيس المدارس ببغداد « أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون سببًا لارتفاعه »[1] .

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ١ / ٢٢ .

ولما كان الذي يعين المدرس ويعزله هو صاحب المدرسة ، فأنه يستطيع أن يطلب توجيه الدراسة الوجهة التي يرتضيها مما لا يمكن تحقيقه خارج المدارس ، ففي سنة ٦٤٥ هـ طُلِبَ إلى مدرسي المستنصرية ألا يذكروا شيئًا من تصانيفهم ولا يلزموا الفقهاء (الطلبة) بحفظ شيءٍ منها بل يذكروا كلام المشايخ[١] .

إنَّ كثرة انتشار المدارس في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) لم يؤثر على استمرار نشاط التعليم الحر في المساجد والجوامع والبيوت وغيرها ، فلقد استمرت الدراسة الحرة هي الأساس الذي قامت عليه الحركة الفكرية العربية ، فالإحصائيات التي أجريناها على العُلماء في كُتُب التراجم المتنوعة التي عُنيت بسير العلماء وأخبارهم بعد ظهور المدارس تشير بكل وضوح إلى أنَّ الذين تلقوا علومهم في المدارس كانوا قلة قليلة قياسًا بمن تلقى العلم خارجها .

لقد أشار ابن الحاج في مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في كتابه « المدخل إلى الشرع الشريف » إلى تفضيله المسجد على المدرسة على الرغم من انتشار المدارس في زمانه ، فقال : « لا يخلو موضع التدريس من ثلاثة أحوال : إما أن يكون بيتًا أو مدرسة أو مسجدًا ، وأفضل مواضع التدريس المسجد ، لأنَّ الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يُتعلم به حكمٌ من أحكام الله علينا . والمسجد الذي يحصل فيه هذا الغرض متوفر لأنه موضع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم بخلاف البيت

(١) الكتاب المسمى بالحوادث ٢٦٨ (بتحقيقنا) .

فإنه محجور على النّاس إلا من أُبيح له وذلك لأناس مخصوصين ، وإن كان العالم قد أباح بيته لكل من أتى لكن جرت العادة أن البيوت تُحترم وتُهاب ، فكان المسجد أولى لأنه أهم في توصيل الأحكام وتبليغها للأمة ... وأن المدرسة لا يدخلها في الغالب إلا آحاد الناس بالنسبة للمسجد ، لأنه ليس كل النّاس يقصد المدرسة وإنما يقصد أعمهم المساجد »[١] .

بعد كل هذا الذي قدّمنا نعود فنقول : إنَّ الأستاذ والكتاب هما الدعامتان اللتان قامت عليهما مُجمل الحركة الفكرية العربية قبل تأسيس المدارس وبعدها .

۞ ۞ ۞ ۞

(١) المدخل إلى الشرع الشريف ١ / ٨٥ .

الفصل الرابع

مدارس العراق في العصر العباسي

تمهيد

أخذت المدارس بالانتشار منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في بغداد والمدن العراقية الأخرى[١] .

وسنحاول أن نذكر هذه المدارس على وجه الاختصار مرتبة على المدن أولاً ثم استنادًا إلى تسلسلها الزمني في كل مدينة منها ، فنذكر من كل مدرسة ما يبين شأنها .

---

(١) انظر عن مدارس بغداد كتب الدكتور ناجي معروف « تاريخ علماء المستنصرية » مجلدان ، بغداد ١٩٦٥ ، و « المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة » ، بغداد ١٩٦٥ ، و « نشأة المدارس المستقلة في الإسلام » ، بغداد ١٩٦٦ ، وعلماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ، بغداد ١٩٧٣ ، وكتاب « مدارس بغداد في العصر العباسي » للدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، بغداد ١٩٦٦ ، و « أول مدرسة في العراق » للدكتور مصطفى جواد ، المعلم الجديد ، العدد (١) سنة ١٩٤٠ ، و « ضوء جديد على أوقاف المستنصرية » للدكتور ناجي معروف ، الأقلام م ٢ ، ١٩٦٥ ، إضافة إلى ما اعتمدته من مصادر كثيرة مخطوطة ومطبوعة .

المبحث الأول

مدارس بغداد

١ـ مدرسة مشهد أبي حنيفة ٤٥٩ هـ ـ ١٠٦٧ م

وتسمى أيضًا المدرسة الشَّرَفية ؛ نسبة إلى منشئها شرف المُلْك أبي سَعْد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان السلجوقي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ ، أنشأها بجوار مشهد أبي حنيفة[١] .

وهي أول مدرسة افتتحت ببغداد في ٢٧ جُمادي الآخرة سنة ٤٥٩ هـ أي قبل النظامية بأربعة أشهر ونصف تقريبًا . وكان وقفها أكثر أهمية من وقف النظامية .

كانت هيئة المدرسة تتكون من « المدرس » ، وهو الذي يدير أوقافها أيضًا ، ومن دونه معيدون ، وإداريون ، ومساعدون ، وإمامٌ يقيم الصلوات . كما كانت تحتوي على مكتبة خاصة بها يشرف عليها خازن ، وبذلك فهي لا تختلف عن المدرسة النظامية من حيث الإدارة والتنظيم .

وأول من عُيّن للتدريس فيها أبو طاهر إلياس بن ناصر بن إبراهيم الديلمي ، وهو من كبار الفقهاء الذين تخرجوا بالصَّيْمري وأبي عبد الله الدَّامغاني ، وكان قبل هذا قد دَرَّس الفقه بواسط ، ورأسَ حَلْقةً بجامع القصر ، ثم صار مدرسًا للفقه بمسجد الصَّيْمري ، وقد استمر أبو طاهر مدرسًا بها إلى حين وفاته سنة ٤٦١ هـ [٢] ، فخلفه فيها نور الهُدَى أبو طالب الحُسين بن محمد بن عليّ

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ١٢٨ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩ / ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) القرشي : الجواهر المضيئة ١ / ١٦٣ نقلًا من تاريخ ابن النجار .

الزينبي العبّاسي الذي دَرَّس فيها إلى حين وفاته سنة ٥١٢ هـ أي قرابة اثنين وخمسين عامًا ، وكان من أعظم علماء عصره بفقه مذهبه[١] . وتوالى بعد ذلك عدد من المدرسين للتدريس فيها ممن عُرفوا باتساع معارفهم الفقهية ومنزلتهم البارزة منهم : إسماعيل بن عبد الرحمن اللمغاني (ت ٥٣٦ هـ) ، وأبو القاسم الزينبي (ت ٥٤٣ هـ) ، وزين الأئمة أبو الفضل محمد بن محمد ابن الحسين الحنفي (٥٤٦ هـ) ، وأبو الغنائم شجاع بن الحسن البغدادي (ت ٥٥٧ هـ) ، وأبو الحسن مسعود بن الحسين اليزيدي (ت ٥٧١ هـ) ، وأبو المحاسن ابن الكيال الواسطي (ت ٦٠٥ هـ) ، وضياء الدين التركستاني (ت ٦١٠ هـ) ، وغيرهم[٢] .

وتعد هذه المدرسة أطول مدارس بغداد عُمرًا على الإطلاق ، لأنها مازالت موجودة إلى يومنا هذا بالرغم من الظروف القاسية التي مرت بها بغداد بعد سقوط الدولة العباسية . ولم تكن هذه المدرسة أقل شأنًا من النّظامية وإن كانت كثرة إشارة المصادر إلى تعيين وعزل المدرسين بالنظامية قد يوحي أول وهلة إلى أهميتها لكن ليس من دليل تاريخي يثبت أية ميزة للنظامية عليها .

وقد اشتُهرت خزانة كتب هذه المدرسة ، فقد أوقف منشؤها مجموعة من الكتب النفيسة أشار إليها المؤرخون[٣] فكان من جملة ما اشتملت عليه من الكتب الفخمة تفسير كبير لأبي يوسف عبد السلام بن محمد القزويني المتوفى

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ٢٠١ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ / ٥٤٥ ، القرشي : الجواهر ١ / ٢١٩ .

(٢) ينظر كتاب ابن خالتي الأستاذ وليد الأعظمي : مدرسة الإمام أبي حنيفة (المجموعة الكاملة ، المجلد الثالث ص ١٣٤٥ فما بعد) ، بيروت ٢٠٠٧ م .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ١٠ / ٢٤٨ ، ابن الساعي : الجامع المختصر ٩ / ٢٣٦ .

سنة ٤٨٨ هـ أقل ما وصف أنه في ثلاث مئة مجلدة[١] ، وأكثر مؤلفات الجاحظ[٢] . وأوقف ابن جزلة الطبيب البغدادي المشهور المتوفى سنة ٤٩٣ هـ كتبه على هذه المكتبة[٣] وكذلك فعل العالم الكبير والمفسر الشهير جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ[٤] . وكان لها فهرست بأسماء الكتب الموقوفة فيها اطلع عليه ابن الجوزي[٥] .

٢ ـ المدرسة النِّظامية ٤٥٩ هـ ـ ١٠٦٧ م[٦]

أمر بإنشائها الوزير الكبير نظامُ الملك الحَسَن بن عليّ المقتول بأيدي الباطنية سنة ٤٨٥ هـ ، وهي واحدة من مجموعة المدارس الكثيرة المعروفة بالنظاميات التي أقامها هذا الوزير الفاضل . وقد ابتدأ بناؤها في ذي الحجة سنة ٤٥٧ هـ وتم افتتاحها في العاشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، وكانت تقع قرب شاطئ دجلة فوق دار الخلافة العباسية بينها وبين المُستنصرية .

ولعل موقعها سوق الخَفَّافين قُرب المكان الذي مازال يُعرف بقهوة الشط بين جامع الوَفَائية شرقًا ونهر دجلة غربًا وخان الباجه جي من الشمال وشارع السموأل من الجنوب .

(١) القرشي : الجواهر المضيئة ١ / ٣١٦ .

(٢) تنظر مقدمة عبد السلام هارون لكتاب الحيوان للجاحظ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ١١٩ ، القفطي : أخبار الحكماء ٣٦٦ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ / ٢٦٨ .

(٥) صيد الخاطر ٣٦٧ .

(٦) تنظر تفاصيل عنها في كتاب « علماء النظاميات » للعلامة الدكتور ناجي معروف (بغداد ١٩٧٣) .

بَنَى نظام الملك هذه المدرسة برسم الفقيه الكبير أبي إسحاق إبراهيم بن عليّ الشِّيرازي ثم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ أعظم علماء بغداد الشافعية آنذاك ، وأوقف عليها كتبًا وضياعًا وأملاكًا وسوقًا بُنيت على بابها ، وجعل إدارتها بيده وبأيدي أبنائه من بعده ، وقرر أن يكون فيها مدرس (أستاذ كرسي الفقه) ، وواعظ ، ومدير مكتبة ، ومقرئ للقرآن الكريم ، ونحوي يدرّس العربية . وجعل لكل واحدٍ من هؤلاء قسطًا من الوَقْف ، وقرر للطلبة مخصصات يعيشون عليها فضلاً عن سُكناهم داخل المدرسة ، وشرط فيهم جميعًا أن يكونوا على مذهب الشافعي أصلاً وفرعًا .

وقد نالت المدرسة النِّظامية صيتًا ذائعًا في كل أنحاء العالم الإسلامي ، وتولى التَّدْريس فيها أكابر العُلماء ممن كانت لهم اليد الطولى في تطوير الحركة الفكرية العربية وإنعاشها بما تركوا من مؤلفات نفيسة أصبحت من أمهات الكتب المعتمدة في العصور التالية ، وبما ألقوا من محاضرات معمقة ، وبما خَرَّجوا من طلبة نجباء كان للنظامية فضل كبير على تكوينهم الفكري وعلو منزلتهم العلمية ، ومنهم جمهرة كبيرة من غير العراقيين . ومن المدرسين فيها بعد أبي إسحاق الشيرازي : أبو سَعْد المتولي (ت ٤٧٨ هـ) والشَّريف أبو القاسم الدَّبوسي العلوي (ت ٤٨٣ هـ) ، وأبو عبد الله الحُسين بن علي الطَّبَري (ت ٤٩٥ هـ) ، وأبو الحَسَن علي بن محمد الطَّبَري المعروف بإلكيا الهَرَّاسي (ت ٥٠٤ هـ) ، والإمام الشهير أبو حامد الغَزَّالي (ت ٥٠٥ هـ) ، وأبو بكر محمد بن أحمد الشاشي المُسْتَظهري (ت ٥٠٧ هـ) ، ومُعين الدين الرَّزاز (ت ٥٣٨ هـ) ، وأبو الفتح أسعد بن أبي نَصْر المِيهَني العُمَري (ت ٥٢٧ هـ) ، وأبو أسعد أحمد بن محمد الخُجَنْدي (ت ٥٣١ هـ) ،

وابن فَضْلان (ت ٥٩٥ هـ) ، وغيرهم ممن زخرت بهم كُتُب التراجم .

ومن مشاهير الطَّلَبة الذين قصدوها من خارج العراق ودرسوا فيها : أبو محمد عبد الله بن يحيى بن بُهْلُول السَّرَقُسْطِي المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، وأبو الفضل محمد بن عبد الكريم القَزْويني الرَّافعي المتوفى سنة ٥٨٠ هـ وغيرهم .

واشتهرت المدرسة النظامية بخزانة كُتبها النفيسة التي أوقفها نظام الملك والتي كان يُشْرف عليها خازن يتقاضى سبعة دنانير في الشهر ومشرف يتقاضى ثلاثة دنانير ، وذكر ابن الجوزي أنه وقف على فهرست الكتب الموقوفة بها فوجده يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد[١] .

وقد عُرفت هذه الخزانة بالخزانة العتيقة لأنَّ الخليفة الناصر لدين الله أنشأ خزانة كُتُب أخرى بالمدرسة النظامية سنة ٥٨٩ هـ ، ونقل إليها الآلاف من الكتب النفيسة من خزانة كتبه الخاصة . ونقل مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي عن تاج الدين ابن الساعي أنَّ محب الدين ابن النجار المؤرخ البغدادي المشهور المتوفى سنة ٦٤٣ هـ قد أوصى بوقف كتبه في المدرسة النظامية[٢] . وذكر ابن كثير في ترجمة ابن النجار أنه أوقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوي ألف دينار ، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم[٣] .

٣ ـ مدرسة فخر الإسلام الشَّاشي بقراح ظَفَر : قبل سنة ٤٨٢ هـ ـ ١٠٨٩م

من مدارس الشافعية ، مَنْسوبة إلى الإمام الكبير فخر الإسلام أبي بكر محمد

---

(١) صيد الخاطر : ٣٦٦ .

(٢) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٤٨٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ١٦٩ .

ابن أحمد بن الحُسين الشاشي الفقيه الشافعي (٤٢٩ ـ ٥٠٧ هـ / ١٠٣٨ ـ ١١١٤ م) ، قال تاج الدين السبكي : « وكان فخر الإسلام يدرس أولا في مدرسة لنفسه لطيفة بناها بقراح ظفر فلما بَنَى تاج الملك أبو الغنائم مدرسته بباب أبرز رتبه مدرسًا بها »[1] .

وكانت محلة قراح ظفر من محال الجانب الشرقي ، موقعها اليوم شمالي مدينة بغداد ، شمالي محلة الفضل الحالية بلصق السور . ولم يرد أي خبر عن هذه المدرسة بعد الشاشي فكأنها تُركت .

٤ ـ المدرسة التّاجية : ٤٨٢ هـ ـ ١٠٨٩ م

من مدارس الشافعية ، أنشأها تاج الملك أبو الغنائم المَرْزُبان بن خسرو مستوفي مملكة السلطان ملكشاه السّلجوقي في محلة باب أبْرز عند قبر الشيخ أبي إسحاق الشرازي (بين محلة الفضل وتبة الكُرد الحالية) .

وتم افتتاحها في محرم سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ورُتِّبَ فخرُ الإسلام أبو بكر الشاشي مدرسًا فيها ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٨٢ هـ : « في تاسع عَشَر المحرم دَرَّس أبو بكر الشاشي في المدرسة التي بناها تاج الملك أبو الغنائم بباب أبرز ووقفها على أصحاب الشافعي وسماها التاجية »[2] ، وقال الذهبي في ترجمته من « تاريخ الإسلام » : « وولي تدريس النظامية ببغداد بعد شيخه (أبي إسحاق الشيرازي) وبعد ابن الصباغ والغزالي ، ثم وليها بعد موت إلكيا الهراسي سنة أربع وخمس مئة في المحرم

---

(١) طبقات الشافعية : ٦ / ٧٢ .

(٢) المنتظم : ٩ / ١٧٩ ، والذهبي : تاريخ الإسلام : ١٠ / ٤٧٢ .

ودَرَّس بمدرسة تاج الملك وزير ملكشاه »[١] .

ولم تسعفنا المصادر بأسماء المدرسين الذين تولوا التدريس بها بعد فخر الإسلام الشاشي ولكن ذكرها استمر في المصادر ، فقد وعظ بها جماعة من الوعاظ[٢] وصُلِّي فيها على بعض الجنائز ، وكانت موجودة قبيل سقوط بغداد ، فقد جاء في حوادث سنة ٦٥٠ هـ من الكتاب المُسمى بالحوادث : « وفيها كتب أقضى القضاة سراج الدين التُّهرقلي إلى الوزير يذكر أنَّ المدرسة التَّاجية قد استولى عليها جماعةٌ من العوام وسكنوا بها وصارت لهم بمنزلة الملك يتبايعون بها ويسكنها النِّساء ، وتَجْري فيها أمور ، فَتَقُدِّمَ بإخراجهم فأخرجوا وسُلِّمت إليه فرتَّب فيها مدرسًا وفقهاء »[٣] .

٥ ـ مدرسة تُركان خاتون : قبل سنة ٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م .

من مدارس الشافعية ، أُمرت بإنشائها تُركان خاتون الجلالية زوجة السُّلطان ملكشاه السلجوقي وأم السلطان محمود المتوفاة في رمضان سنة ٤٨٧ هـ .

وقد شيدتها في الجانب الشرقي من بغداد عند دار السَّلْطنة السلجوقية بالمُخَرَّم (العيواضية) ، ثم هُدمت مع ما هدم من أبنية مجاورة بأمر الخليفة المستظهر بالله العباسي سنة ٤٩٦ هـ ولا نعلم شيئا عن المدرسين بها[٤] .

---

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٩١ .

(٢) تاريخ الإسلام : ١١ / ٩١٩ و ١٢ / ٢٣٨ .

(٣) كتاب الحوادث : ٣٠٥ - ٣٠٦ (بتحقيقنا) .

(٤) ترجمة تركان خاتون في وفيات سنة ٤٨٧ من المنتظم (٩ / ٨٤) ، وخبر هدمها فيه أيضا ٩ / ١٣٥ .

٦ ـ مدرسة الأمير سعادة الرسائلي : قبل سنة ٥٠٠ هـ ـ ١١٠٦ م

من مدارس الحنفية أمر بإنشائها خادم الخليفة المستظهر بالله الأمير عز الدين أبو الحَسَن سعادة بن عبد الله الرُّومي المستظهري الرَّسائلي المتوفى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م[١] ، وموقعها في الجانب الشرقي عند موقع المحاكم المدنية . وقد بقيت هذه المدرسة قائمة تُلْقى فيها الدروس إلى أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، ولها ذكر في حوادث سنة ٥٣٨ من « المنتظم »[٢] .

وممن دَرَّس فيها أصيل الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن غازي الحَمَوي المولد قاضي واسط المتوفى سنة ٦٣٨ هـ[٣] .

كما دَرَّس بها القاضي بدر الدين علي بن محمد ابن ملاق الرقي وكان فيها إلى سنة ٦٨٣ هـ في الأقل[٤] .

وكان في هذه المدرسة نَحْوي يُدَرس النحو فممن درس النحو فيها فخر الدين أبو جعفر أحمد بن عُبيد الله بن الحُسين بن أحمد بن جعفر الآمدي الصُّوفي المقتول بواقعة بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ م[٥] .

كما كانت فيها مساكن للطلبة ، فقد سكن فيها الفقيه أحمد بن محمد بن

(١) ترجمته في تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي ٤ / الترجمة ١٨٧ .
(٢) المنتظم : ١٠ / ١٠٨ .
(٣) ابن الشعار : عقود الجمان ٧ / الورقة ١٧٦ ، والقرشي : الجواهر ٢ / ٩٥ .
(٤) ينظر كتاب الحوادث ٤٦٦ ، ٤٧٨ .
(٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٩٥٧ .

علي المدائني المعروف بابن الكُجْلُو المتوفى سنة ٥٧٨ هـ[١] .

٧ ـ المدرسة التُتُشية : قبل سنة ٥٠٨ هـ ـ ١١١٤ م

أمر ببنائها الأمير نجم الدولة خمارتكين بن عبد الله التُتُشي المتوفى في الرابع من صفر سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م[٢] في مشرعة دَرْب دينار ، في موقع جامع الوزير عند الجِسْر اليوم ، لتدريس الفقه الحنفي وتشير أخبار مدرسيها أنها كانت موجودة حتى منتصف القرن الثامن الهجري .

وممن درس بها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن الحسن اللّمْغاني الحنفي المتوفى سنة ٥٥٤ هـ قال ابن الدُّبيثي : « من أهل محلة أبي حنيفة ... ودَرَّس بالمدرسة التتشية بمشرعة درب دينار ، وتخرج به جماعة »[٣] ، والفقيه علم الدين أبو زكريا يحيى بن المظفر بن الحسن بن بركة بن محرز البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ[٤] ، وفخر الدين أبو العز يوسف بن أحمد بن يوسف الحلبي الذي تولى نيابة التدريس بها سنة ٦٣٣ هـ[٥] ، وأبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن القُرشي العدوي العُمري الصاغاني صاحب « العُباب » المعجم المشهور ، تولى تدريسها

---

(١) الجواهر المضيئة ١/ ١١٢ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ / ١٥ .

(٣) ذيل تاريخ مدينة السلام ١ / ٤٠٤ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٢٣ ، وترجمته في تكملة المنذري ٣ / الترجمة ٢٢١٩ .

(٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٢٣ ، وتوفي بوقعة التتار بحلب سنة ٦٥٨ هـ كما في تاريخ الإسلام ١٤ / ٩٠٢ ، وصلة التكملة للحسيني ١ / ٤٢٨ .

سنة ٦٤٢هـ [١] ، وشمس الدين محمد بن عُبيد الله الهاشمي الكوفي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ[٢] ، ومجد الدين أبو المظفر الحُسين بن محمد بن أحمد الدامغانيّ البغداديّ عَصْريّ ابن الفوطي[٣] .

٨ ـ مدرسة المُخَرّمي (مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي) : قبل ٥١٣ هـ ١١١٩ م

أنشأها الفقيه أبو سعد المبارك بن عليّ بن الحُسين المُخَرّمي (٤٤٦ ـ ٥١٣ هـ) بأقصى باب الأزج (في جامع الشيخ عبد القادر حاليًا) ، ودَرّس بها الفقيه الشهير الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي ووسّعها فعُرفت به ، قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « المُبارك بن عليّ بن الحُسين أبو سَعْد المُخَرّمي الفقيه الحنبلي ، أحد شيوخ المَذْهب . ولي القضاء بباب الأزج ، وكان إمامًا مُفتيًا ، ذكيًا ، كثيرَ المحفوظ ، جميل السيرة ، مليحَ العِشْرة . تفقه على الشريف أبي جعفر بن أبي موسى الهاشمي ، وعلى القاضي يعقوب بن إبراهيم العُكْبَري ... وتفقه به جماعة كثيرة ودُفن بجنب المُروذي ، وبني مدرسةً بباب الأزج ثم شُهرت بالشيخ عبد القادر تلميذه »[٤] . وقال ابن رجب : « وَبَنى مدرسةً بباب الأزج ... والمدرسة المذكورة التي بناها هي المنسوبة الآن إلى تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلي لأنّه وَسّعَها وسكن بها فعُرفت به »[٥] .

---

(١) كتاب الحوادث : ٢٣٠ ، ٣٠٧ .

(٢) كتاب الحوادث : ٤٢٧ ، و تاريخ الإسلام : للذهبي ١٥ / ٢٩٧ .

(٣) ترجمة ابن الفوطي في الملقبين : بمجد الدين من تلخيصه .

(٤) تاريخ الإسلام ٢١٢/١١ .

(٥) الذيل ١٦٦/١ ـ ١٦٧ .

وتُعد هذه المدرسة من أقدم مدارس الحنابلة ببغداد ، وأعظمها شأنًا ، وأكثرها أوقافًا ، وأطولها عمرًا ، إذ لا تزال باقية إلى يومنا هذا ، وقد دَرَّس بها بعد الشيخ عبد القادر أولاده وأحفادُه فهم يتوارثون التدريس بها .

وكانت هذه المدرسة تشتمل على خزانة كتب نفيسة وضع نواتها مؤسسها القاضي أبو سَعْد المُخَرِّمي ، وتعهدها بالعناية والزيادة الشيخ عبد القادر وأولاده من بعده . كما أوقف عليها بعض أهل العلم كتبهم منهم : المقرئ المشهور أبو الحسن عليّ بن عَسَاكر بن المُرَحّب البطائحي المتوفى سنة ٥٧٢ هـ ، والشيخ أبو الحسن مُرتضى الحارثي المقدسي المتوفى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م أيضًا[١] .

٩ ـ مدرسة أبي شجاع البَيِّع : قبل ٥٢٠ هـ ـ ١١٢٦ م

أنشأها أبو شجاع بَهْرام بن بَهْرام بن فارس البَغْداديّ البَيِّع (٤٣٠ ـ ٥٢٠ هـ) ، قال ابن الجوزي : « وكان كريمًا بَنَى مدرسةً لأصحاب أحمد بباب الأَزَج عند باب كلواذا ، ودُفن فيها ، ووقفَ قطعةً من أملاكه على الفُقهاء وسُبُل الخير »[٢] ، وقال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « بهرام بن بهرام بن فارس ، أبو شجاع البغداديّ البيع أحد الرؤساء والمتمولين . ولد في المحرم سنة ثلاثين وأربع مئة ، وسمع أبا القاسم التنوخي وأبا محمد الجَوْهري وغيرهما ، قال ابن السمعاني : صَلُح أمرُه في آخر عُمُره وحسنت طريقته ، وكان له معروف كثير

(١) انظر تفاصيل عن هذه المكتبة في المقدمة التي كتبها الدكتور عماد عبد السلام رؤوف لفهرس مخطوطاتها الذي صنعه في أربع مجلدات .

(٢) المنتظم : ٩ / ٢٦٢ .

وصدقة جارية . قال أبو الفرج ابن الجوزي : كان سماعه صحيحًا وكان كريما بَنَى مدرسة للحنابلة بكلواذا ... »[١] .

١٠ ــ المدرسة الموفقية سنة ٥٢٢ هـ ــ ١١٢٨ م .

مَنْسوبة إلى منشئها الخادم موفق بن عبد الله الخاتوني خادم الخاتون الملكشاهية زوجة الخليفة المستظهر المتوفاة سنة ٥٣٦ هـ . ولعلها هي التي صرفت على إنشائها إذ كانت المدرسة تُعرف بها أول افتتاحها ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٢٢ هـ : « وفي جُمادي الآخرة رُتِّب المَنْبِجي في مدرسة خاتون المُسْتظهرية رَتَّبَهُ موفق الخادم »[٢] . والمنبجي هذا هو الحَسَن بن سلامة ابن ساعد أبو علي الحَنَفي من أهل منبج من الشام ، قدم بغداد واستوطنها وتفقه بها على قاضي القضاة الدامغاني حتى برع في الفقه ، وشهد عنده فكان من الشهود المعدَّلين ، وتولى قضاء نهر عيسى ، وتولى التدريس بهذه المدرسة سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، وتوفى سنة ٥٣٣ هـ[٣] . غير أنَّ هذه المدرسة عُرفت فيما بعد بالموفقية ، ونُسِبت إلى موفق الخادم ، فقد ذكر ابن الجوزي هذه المدرسة في حوادث سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م عند تناوله خبر قتال أهل بغداد وتصديهم لبعض السلاجقة ، فقال : « كان القتال تحت مدرسة موفق »[٤] . وعرفت بالموفقية في كتب التَّراجم التي ذكرت بعض مُدَرِّسيها .

كانت هذه المدرسة تقع في رأس درب زاخي على شاطئ نهر دجلة ، فإذا

---

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٣١٥ - ٣١٦ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٩ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١١ / ٥٩٠ ، والجواهر المضيئة ١ / ١٩٤ .

(٤) المنتظم : ١٠ / ١٣٢ .

علمنا أنَّ درب زاخي هو شارع المتنبي الحالي شارع الكتبيين المشهور ، كان موقع المدرسة عند نهايته ، مما يلي نهر دجلة ، قال جمال الدين ابن الدُّبيثي في ترجمة مدرسها أحمد ابن المنبجي الذي تولى التدريس بها بعد والده : « أحمد بن الحَسَن بن سلامة بن ساعد المَنْبِجي الأصل البغدادي المولد والدار أبو العباس بن أبي علي الفقيه الحنفي ، درس بالمدرسة الموفقية التي على دجلة برأس دَرْب زاخي بعد أبيه ، وروى عن أبي القاسم علي بن أحمد بن بيان وغيره . سمع منه القاضي عمر القرشي وغيره ... توفى أحمد ابن المنبجي يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الآخرة سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة »(١) . وذكر ابن النجار أنه توفى سنة ٥٨٤ هـ وتابعه على ذلك القرشي في « الجواهر »(٢) ، والتميمي(٣) .

وممن درس في هذه المدرسة علم الدين أبو زكريا يحيى بن المظفر بن الحَسَن بن مُحرز البغدادي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ وهو مدرس التُّتشية أيضًا وكانت له حلقة للمناظرة بجامع السلطان(٤) . ومنهم : مجد الدين عبد الملك ابن عبد السلام اللَّمْغاني البغدادي الحنفي المدرس بمدرسة مشهد أبي حنيفة أيضًا والمتوفى سنة ٦٤٨ هـ(٥) .

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) الجواهر المضيئة ١ / ٦٤ .

(٣) الطبقات السنية ١ / ٣٨٠ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٢٣ .

(٥) الجواهر المضيئة : ١ / ٣٣١ ، وهو مترجم في تاريخ الإسلام : ترجمة مختصرة ١٤ / ٦٠٤ .

وقد استمرت الدراسة في هذه المدرسة إلى أواخر القرن السابع الهجري ، فقد عرفنا من مدرسيها في هذه المدة مظفر الدين أبا العباس أحمد بن علي بن تغلب المعروف بابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، قال ابن الفوطي : « ورُتِّب في منتصف ذي الحجة سنة ٦٨٢ هـ مدرسًا بالمدرسة الموفقية وحضره الأكابر والأعيان »(١) .

١١ ـ المدرسة المُغيثية : قبل ٥٢٥ هـ ـ ١١٣١ م

منسوبة إلى مُغيث الدين أبي القاسم محمود ابن غياث الدين محمد بن ملكشاه السّلجوقي(٢) (٤٩٧ ـ ٥٢٥ هـ) ، ويقال لها مدرسة السلطان أيضًا(٣) ومدرسة السلطان محمود(٤) ، والمدرسة الغياثية(٥) . وتدل أخبار مدرسيها على أنها كانت قائمة في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وكانت تقع على دجلة جنوب المدرسة التُّتشية .

وممن دَرَّس فيها : الفقيه أبو الفضل محمد بن محمد بن الحُسين المعروف بزين الأئمة الضَّرير المدرِّس بمدرسة مشهد أبي حنيفة نيابة والمتوفى سنة ٥٤٦ هـ(٦) ، ومجد الدين أبو الخير مسعود بن الحُسين اليزدي المدرس

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١١٢٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٥ / ١٨٢ - ١٨٣ ، وتاريخ الإسلام ١١ / ٤٤٠ .

(٣) المنتظم : ١٠ / ٢٣٥ ، والذيل لابن الدبيثي ١ / ٢٩٩ و ٢ / ١٥ .

(٤) المنتظم : ١٠ / ٢٣٦ .

(٥) تاريخ ابن الدبيثي : ١ / ٢٩٩ و ٢ / ١٥ ، ٥٤٤ .

(٦) الجواهر المضيئة : ٢ / ١١٦ وتحرف اسم المدرسة إلى « العباسية » .

بمدرسة أبي حنيفة أيضًا والمتوفى سنة ٥٧١ هـ[١] ، وأبو منصور محمد بن الحُسين بن محمد ابن المعلم المتوفى سنة ٥٧١ هـ[٢] ، ومنتجب الدين أبو الفضل عبد الكريم بن المبارك بن محمد البَلَدي الأصل البغدادي الحنفي المعروف بابن الصيرفي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، قال المنذري : « ودرس بالمدرسة المغيثية على دجلة »[٣] .

ومنهم : فخر الإسلام أبو الفضل محمد بن محمد بن عمر البخاري المحتسب ببغداد عصري ابن الفوطي ، وقد درس بها سنة ٦٧٧ هـ[٤] ، ومجد الدين أبو الفضل محمد بن أحمد بن علي المعروف بابن الساعاتي معيد الحنفية بالمستنصرية ، ومحيي الدين أبو الفضل محمد بن يحيى بن هبة الله بن المحيا العباسي الكوفي البغدادي النقيب مدرس الفقه الحنفي بالمدرسة المستنصرية والمتوفى سنة ٧٠٣ هـ[٥] .

لقد ذكرنا فيما تقدم أن ممن دَرَّس في هذه المدرسة مجد الدين أبو الخير مَسْعود بن الحُسين اليزدي المدرِّس بمدرسة مشهد أبي حنيفة ، قال ابن الجوزي : « ودَرَّس بمدرسة أبي حنيفة ومدرسة السُّلطان ثم خرج إلى الموصل

---

(١) المنتظم : ١٠ / ٢٦١ ، وتلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٥٤٢ .

(٢) تاريخ ابن الدبيثي : ١ / ٢٩٨ ، والجواهر المضيئة ٢ / ٥٠ وتحرف الاسم فيه إلى « العنانئية » !

(٣) التكملة ١ / الترجمة ٥٣٦ ، وهو قول ابن الدبيثي في تاريخه ٤ / ٢٠٩ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٢٤١٨ .

(٥) ينظر : تاريخ علماء المستنصرية للدكتور ناجي معروف .

فأقام مدة يدرس هناك وينوب في القضاء فتوفى بها في جُمادي الآخرة »[١] .
وكان اليزدي هذا من المدرسين بجامع السُلطان ملكشاه المعروف بجامع المدينة إضافة إلى تدريسه بالمُغيثية .

وفي رجب خلفه الشريف ابن ناصر العَلَوي في التدريس بالمغيثية فحضر درسَهُ قاضي القضاة وغيرُه . والظاهر أنه لم يستمر بالتدريس بالمغيثية إذ تولى في الرابع والعشرين من الشهر المذكور التدريس بجامع السلطان بدلا من اليزدي[٢] ، وأعطيت المغيثية لأبي منصور ابن المعلم في محرم سنة ٥٦٧ هـ[٣] . أي بعد تولية ابن ناصر العلوي بستة أشهر تقريبًا .

أما ابن ناصر العلوي فقد استمر في التدريس بجامع السلطان إلى حين وفاته في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٤ هـ[٤] .

وإنما فَصَّلتُ في هذا الأمر لأن محيي الدين القرشي نقل عن المنذري أنَّ ابن ناصر العلوي دَرَّس بمدرسة السُلطان إلى أن تُوفي[٥] ، بينما الذي ذكره المُنذري أنَّه درس بجامع السلطان فأدَّى هذا النقل الخاطئ أو التحريف إلى لبس ، قد يؤدي إلى أن يُعَدّ جامع السلطان مدرسة مستقلة .

١٢ ـ مدرسة ابن الأبرادي : قبل سنة ٥٣١ هـ ـ ١١٣٧ م

كانت هذه المدرسة في الأصل دارًا لأبي البركات ابن الأبرادي في البدرية

(١) المنتظم : ١٠/ ٢٦١ .
(٢) المنتظم : ١٠ / ٢٣٥ .
(٣) المنتظم : ١٠ / ٢٣٦ .
(٤) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٤٣١ .
(٥) الجواهر المضيئة : ١ / ٣٦٨ .

(غرب الشورجة) فأوقفها مدرسة للحنابلة ، قال الذهبي في وفيات سنة ٥٣١ هـ من « تاريخ الإسلام » : « أحمد بن عليّ ، أبو البركات ابن الأبرادي الفقيه الحنبلي الرجل الصالح ، تفقه على أبي الوفاء بن عَقِيل ، وسمع من أبي الحسن الأنباري ، وأبي الغنائم بن أبي عثمان وغيرهما . ووقف دارَهُ مدرسةً على الحنابلة وهي بالبَدْرية . روى عنه أبو المعمَّر الأنصاري وأشرف بن أبي هاشم . توفي في رمضان »[١] .

وذكر مثل هذا ابن الجوزي في « المنتظم »[٢] لكنه توهم فذكر اسم ابنه محمد بن أحمد بدلاً منه ، وكذلك ترجمه ابن رجب ترجمة مقاربة نقلاً من تاريخ ابن النجار وغيره[٣] .

وليس في جميع هذه النصوص ما يشير إلى أنه قد دَرَّس بالدار التي أوقفها ، بل لا تشير ترجمته إلى أنه كان عالمًا مدرسًا ، كما لم نعثر على مدرس لهذه المدرسة ولا ذكر لطالب دَرَس فيها .

١٣ ـ المدرسة الكمالية : سنة ٥٣٥ هـ ـ ١١٤١ م

منسوبة إلى منشئها كمال الدين أبي الفتوح حمزة بن عليّ بن طَلْحة البغدادي الشافعي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ أحد أعيان الدولة العباسية على عهد المسترشد بالله والمقتفي لأمر الله[٤] ، بناها قرب داره داخل دار الخلافة العباسية

---

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٥٤٢ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٧٠ .

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ١٨٨ - ١٨٩ .

(٤) المنتظم : ١٠ / ٢٠٢ ، و تاريخ الإسلام : ١٢ / ١١١ .

عند باب العامة المتصل برحبة جامع القصر (جامع الخُلفاء) ، وأوقف عليها ثُلُث أملاكه ، وافتتحت في شوال سنة ٥٣٥ هـ ، ودَرَّس بها عالم شافعي مشهور هو أبو الحسن محمد بن المبارك ابن الخل (٤٧٥ هـ ـ ٥٥٢ هـ) وكان لابن الخل هذا مسجد برحبة جامع القصر يدرس فيه الفقه الشافعي على الطريقة المعروفة التي شرحناها سابقًا[١] ، فكأن كمال الدين أنشأها من أجله لينتقل من مسجده إليها ولذلك عُرفت المدرسة فيما بعد به ، فيقال فيها « مدرسة ابن الخل » وقد ذكر ابن الجوزي افتتاحها في حوادث سنة ٥٣٥ هـ فقال : « وفي شَوَّال فتحت المدرسة التي بناها صاحب المخزن بباب العامة وجلس للتدريس فيها أبو الحسن ابن الخل ، وحضر قاضي القضاة الزَّيْنَبي وأرباب الدولة والفقهاء وحضرتُ مع الجماعة »[٢] . وتشير الأخبار إلى أنها كانت موجودة في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وأنها كانت من كُبريات مدارس بغداد وكان لمدرسها معيد يعاونه كما سيأتي .

وممن درس فيها بعد أبي الحَسَن ابن الخل تلميذُه الفقيه أبو طالب المُبارك ابن المبارك بن المبارك البَغْدادي الكَرْخي الشافعي المعروف بصاحب ابن الخل (٥٠٣ ـ ٥٨٥ هـ) ، قال زكي الدين المنذري : « دَرَس الفقه على الإمام أبي الحَسَن محمد بن المبارك ابن الخل ولازمَهُ حتى برعَ وسمع منه ، ومن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحُصين ، وأبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، وغيرهم ، وحدث ، وبرع أيضا في جودة الخَطّ ،

---

(١) المنتظم : ١٠ / ١٨٠ ، و تاريخ الإسلام : ١٢ / ٥٥ - ٥٦ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٨٩ .

ودَرَّس بالمدرسة الكمالية بباب العامة ببغداد وبمدرسة ثقة الدَّولة بباب الأزج ، ثم دَرَّس بالمدرسة النِّظامية إلى أن توفي »[١] .

ثم تولى التدريس بها بعد أبي طالب رفيقُه ومعيده يعيش بن صدقة الفُراتي ، قال الزكي المنذري في وفيات سنة ٥٩٣ هـ : « وفي ليلة الرابع والعشرين من ذي القَعْدة توفي الفقيه الإمام الزَّاهد أبو القاسم يعيش بن صَدَقة بن عليّ الفُراتي الشافعي الضَّرير ببغداد ، ودُفن من الغد بالوَرْدية عند شيخه أبي الحسن محمد ابن المبارك ابن الخَل . قرأ القُرآن الكريم بالقراءات على الشريف عُمر بن حمزة العَلَوي بالكُوفة ، وتفقه ببغداد على الإمام أبي الحَسَن محمد بن المبارك ابن الخل ، وبرعَ فيه ، وكان المقدَّم في وقته في المَذْهب والخلاف ، أعادَ لرفيقه أبي طالب المبارك بن المبارك صاحب أبي الحسن ابن الخل بالمَدْرسة الكمالية ، ودَرَّس بمدرسة ثقة الدولة بباب الأزج عدة سنين ، ثم دَرَّس بالمدرسة الكمالية كما درس رفيقه أبو طالب بالنظامية .. وحَدَّث بالكثير ، حدثنا عنه أبو الحسن عليّ بن المبارك المقرئ بدمشق ، وهو منسوب إلى الفُرات النهر المشهور »[٢]

وممن دَرَّس فيها أيضًا أبو الفضل محمود بن أحمد بن محمد الأردبيلي ، قال السُّبكي : « وكان فقيهًا أصوليًا قدم بغداد ودَرَّس بالمدرسة الكمالية وسقطَ في بئر داره فهلك سنة خمس وعشرين وست مئة »[٣] .

ومن المعَيدين فيها : أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن زرقان الفقيه الشافعي المتوفى نحو سنة ٥٩٠ هـ ، قال ابن الدبيثي : « وأعاد للشيخ

---

(١) التكملة ١ / الترجمة ٨٩ وهو ينقل عن ابن الدبيثي .

(٢) التكملة ١ / الترجمة ٤١٠ ، وينظر تاريخ الإسلام : ١٢ / ١٠١٢ .

(٣) الطبقات الكبرى ٨ / ٣٦٨ .

أبي طالب المبارك الكرخي درّسه بالمدرسة الكمالية مدة »[١] .

ومن الطلبة الذين درسوا فيها : أبو الحسن علي بن المبارك بن الحسن المقرئ الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، قال ابن الدبيثي : « من أهل واسط ... وقدم بغداد وأقام بها للتفقه مدة على الشيخ أبي طالب صاحب ابن الخل وبعده على الشيخ أبي القاسم يعيش بن صدقة الفراتي بالمدرسة الكمالية بباب العامة المحروس ... »[٢] .

١٤ ـ المدرسة الثِّقتية : سنة ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٥ م

منسوبة إلى مؤسسها ثقة الدولة أبي الحَسَن علي بن محمد الدُّريني وكيل الخليفة المقتفي لأمر الله وزوج العالمة العراقية الخطيرة فخر النساء شُهْدَة بنت أحمد الإبري ، المتوفى سنة ٥٤٩ هـ ، وكان موضعها بباب الأزج على الشط تحت دار الخلافة ، قال محب الدين ابن النجار : « وبَنَى مدرسة لأصحاب الشافعي على شاطئ دجلة بباب الأزج والى جانبها رباطًا للصوفية ووقف عليهما وقوفًا حسنة »[٣] . وقال العماد الكاتب : « لم يزل متعصبًا لأصحاب الشافعي رضي الله عنه وبَنَى ببغداد مدرسةً لهم وسَلَّمها إلى شيخنا شرف الدين يوسف الدِّمشقي وأقمتُ بها ثلاث سنين للتفقه ، وهي المدرسة المعروفة بالثقتية على الشط تحت دار الخِلافة »[٤] .

ونقل الذهبي عن ابن السمعاني أنه قال : وكان متوددًا متواضعًا بَنَى مدرسة

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ١ / ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٥٣٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢ / ٤٧٨ .

(٤) خريدة القصر ١ / ١٤٤ (القسم العراقي) .

ووقفها على الفقهاء »[١] .

افتتحت هذه المدرسة في جمادي الآخرة سنة ٥٤٠ هـ ، قال ابن الجوزي في حوادث السنة المذكورة : « في جُمادي الآخرة جلسَ يوسف الدمشقي للتدريس بالمدرسة التي بناها ابن الإبري بباج الأزج وحضر قاضي القضاة وصاحب المخزن وأرباب الدولة »[٢] .

والظاهر أن ثقة الدولة قد بنى هذه المدرسة من أجل يوسف الدمشقي هذا لقول ياقوت : « وبُنِيَت له مدرسة بباب الأزج »[٣] ، وهو شرف الدين أبو المحاسن يوسُف بن عبد الله بن بُنْدار الدِّمشقي ثم البغدادي الفقيه الشافعي[٤] (٤٩٠ ـ ٥٦٣ هـ) . وقد استمر أبو المحاسن الدمشقي في التدريس بها إلى حين وفاته على ما يظهر بالرغم من تعيينه في سنة ٥٥٧ هـ ، مدرسًا بالمدرسة النظامية ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٦٤ هـ : « وفي صَفر جلس ابن الشَّاشي للتدريس بالمدرسة الثِّقتية على شاطئ دجلة بباب الأزج التي كانت بيد يوسف الدمشقي وحضر عنده جماعة من أرباب المناصب »[٥] .

ثم تولى التدريس بها الإمام أبو طالب المبارك بن المبارك بن المبارك

---

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٩٦٩ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ١١٦ .

(٣) معجم البلدان : ٢ / ٤٧٠ .

(٤) ترجمه ابن الجوزي في المنتظم : ١٠ / ٢٢٦ ، وابن الأثير في الكامل ١١ / ٣٣٣ ، والذهبي في تاريخ الإسلام : ١٢ / ٣١٢ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥١٣ .

(٥) المنتظم : ١٠ / ٢٢٦ .

البَغْدادي الكرخي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ والمعروف بصاحب ابن الخل كما مر عند كلامنا على المدرسة الكمالية(١) ، ثم أعقبه رفيقه وصديقه أبو القاسم يعيش ابن صدقة الفُراتي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ ، وذكر المنذري أنه دَرَّس بها عدة سنين(٢) .

والظاهر أنه استمر في التدريس بها إلى حين وفاته في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٩٣ هـ حيث خلفه في التدريس بها الفقيه أبو المكارم منصور بن الحَسَن بن منصور الزَّنْجاني نزيل بغداد والمعيد بالمدرسة النظامية .

قال ابن السَّاعي : « قدم بغداد وسكنها إلى حين وفاته مقيمًا بالمدرسة النظامية وجُعِلَ معيدًا بها وتولّى التدريس بمدرسة ثقة الدولة أبي الحسن الدُّريني بباب الأزج بعد وفاة أبي القاسم صاحب ابن الخل المدرِّس بها وذلك في أواخر سنة ثلاث وتسعين وخمس مئة وكانت له معرفة بمذهب الشافعي ويد في المناظرة وحلقة بجامع القصر الشريف ، روى شيئًا من الحديث عن أحمد بن إسماعيل القَزْويني مدرس النِّظامية ، توفي ليلة الاثنين من شهر رمضان من سنة سبع وتسعين (وخمس مئة) ودفن بمقبرة الحلبة بباب الأزج »(٣) ، وذكر المنذري ذلك باختصار(٤) وكلاهما نقل من تاريخ ابن الدبيثي(٥) .

---

(١) وتنظر التكملة ١ / الترجمة ٨٩ .

(٢) التكملة ١ / الترجمة ٤١٠ .

(٣) الجامع المختصر ٩ / ٦٤ – ٦٥ .

(٤) التكملة ١ / الترجمة ٦٠٦ .

(٥) وهذا القسم لم يصل إلينا .

وذكر ابن الدُّبيثي[١] ، وابن النجار[٢] ، والمنذري[٣] من مدرسيها الفقيه مجير الدين أبا المظفر عبد الودود ابن الإمام العالم أبي القاسم محمود بن المبارك الواسطي الأصل البغدادي المولد والدار المتوفى سنة ٦١٨ هـ ، وقد أشار ابن الساعي إلى أنه كان مدرسًا بها في شوال سنة ٦٠٦هـ[٤] ، وقد أعاد له بها الفقيه شهاب الدين محمد بن أحمد الزنجاني الذي استشهد بواقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

وممن دَرَّس فيها أيضًا : عز الدين أبو محمد عُمر بن عُمر الطَّيّاري التُّسْتَري[٥] ، وعفيف الدين أبو الحرم مكي بن أبي الفرج بن أبي البَدْر الزُّبيدي الواسطي[٦] ، ومجد الدين عبد الله بن علي الهمذاني القاضي الشاهد المتوفى سنة ٦٨١ هـ[٧] .

وقد بقيت هذه المدرسة قائمة مزدهرة حتى القرن الثامن الهجري[٨] ـ الرابع عشر الميلادي ـ فكان من المدرسين بها سراج الدين أبو حفص عُمر بن عليّ بن عُمر الحُسيني الواسطي المعيد بالمستنصرية شيخ ابن رجب[٩]

---

(١) تاريخه ٤ / ٢١٦ .

(٢) التاريخ المجدد ، الورقة ٥٧ (ظاهرية) .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ١٨١٩ .

(٤) الجامع المختصر ٩ / ٢٨٩ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٣٥٦ .

(٦) المصدر نفسه : ٤ / الترجمة ٧٨٨ .

(٧) المصدر نفسه : ٥ / الترجمة ٣٠٢ .

(٨) المصدر نفسه : ٤ / الترجمة ٩٠٩ ، ١٨٠٦ و ٥ / الترجمة ١٨٨٦ .

(٩) الذيل على طبقات الحنابلة ٢ / ٤٤٤ – ٤٤٥ .

(٦٨٨ ـ ٧٤٩ هـ) .

١٥ـ مدرسة أبي النجيب السُّهْرَوَرْدِي : قبل سنة ٥٤٥ هـ ـ ١١٥٠م

تقع هذه المدرسة قريبًا من دجلة قبالة نادي الضُّباط القديم بمحلة جديد حسن باشا ، وهي اليوم مسجدٌ يُعرف بمسجد نجيب الدين . أنشأها الفقيه الزاهد أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السُّهْرَوَدي ثم البغدادي البَكْري الصِّدِّيقي المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ، قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « سمع أبا عليّ بن نبهان ، وزاهر بن طاهر ، والقاضي أبا بكر الأنصاري ، وجماعة . وكان يحضر المشايخ عنده وسَمِعَ الناس بإفادته ، وحَصَّل الأُصول والنسخ ، ويعظ الناس في مدرسته ، ذكره ابن النجار ، فقال ... وكان له خَرِبة على دِجْلة يأوي هو وأصحابه إليها يحضرُ عنده الرجل والرجلان والجماعة إلى أن اشْتُهر اسمه وظهر ، وصار له القبول عند الملوك ، فكان السلطان يزوره والأمراء ، فبني تلك الخربة رباطًا ، وبَنَي إلى جانبها مدرسةً فصار حِمىً لمن لجأ إليه من الخائفين يجيرُ من الخليفة والسُّلطان . ثم وَلِيَ التَّدْريس بالنظامية سنة خمس وأربعين وخمس مئة ، وعُزل عنها بعد سنتين ، وأملَى مجالس ، وصنَّف مصنفات »[1] . وتشير عبارة ابن النجار التي نقلها الذهبي أنه بَنَي المدرسة قبل توليه تدريس النظامية في محرم سنة ٥٤٥ هـ . ويؤيد ذلك قول ابن الدبيثي في ترجمته : « ودرّس بالمدرسة النظامية الفقه ، وظهرت بركته على المتفقهة ، ثم عاد إلى مدرسته ، وتوفر على التدريس بها والوعظ »[2] .

---

(١) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٣٠٠ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٢٩٧ .

وقد ترجمه أبو سعد السَّمْعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ في تاريخه الذي ذَيَّل به على تاريخ الخطيب وذكر رباطه هذا مما يشير إلى وجوده قبل وفاة ابن السمعاني بمدة ، قال : « وبَنَى رباطًا لأصحابه على الشَّط وسكَنَهُ جماعة من الصَّالحين من أصحابه ، وحضرتُ عنده نوبًا عدة ، فسمعتُ من كلامه ما انتفعت به وكتبت عنه وسألته عن مولده ، فقال : تقديرًا في سنة تسعين وأربع مئة بسهرورد »[1] .

كما نقل الذهبي عن عُمر بن علي القُرشي الدمشقي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ قوله : « وبَنَي مدرسةً ورباطين ودَرَّس وأفتى ، وولي تدريس النِّظامية »[2] .

وذكر ابن الجوزي أنه توفي في جُمادي الآخرة من سنة ٥٦٣ هـ ودفن بمدرسته[3] كما دفن في هذه المدرسة ولده أبو الفضل عبد الله المتوفى سنة ٦٣٠ هـ[4] .

وقد تولى التدريس بها بعد أبي النجيب ولده أبو الرضى عبد الرحيم ، قال المنذري في ترجمة ابنته الشيخة الصالحة سيدة بنت عبد الرحيم زوج الإمام شهاب الدين عُمر بن محمد السُّهروردي المتوفاة سنة ٦٤٠ هـ ، « ووالدها الفقيه أبو الرضى عبد الرحيم سُهْرَوَرديٌّ الأصل بغدادي المولد والدار تفقه على والده وسمع معه جماعة منهم القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري

---

(١) نقله الذهبي في تاريخ الإسلام : ١٢ / ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٢) المصدر نفسه : ١٢ / ٣٠١ .
(٣) المنتظم : ١٠ / ٢٢٥ . وينظر السير ٢٠ / ٤٧٥ وفيه مصادر لترجمته .
(٤) التكملة ٣ / الترجمة ٢٤٥٩ .

وطبقته ودَرَّس بمدرسة والده بعد وفاة والدة »[١] .

وقال ابن الديثي في ترجمته : « ودرَّس الفقه بعد وفاة والده بمدرسته ، وما أعلم أنه حدث بشيء ، وخرج إلى الشام وزيارة بيت المقدس فتوفي بدمشق في سنة سبع وستين وخمس مئة أو نحوها ، والله أعلم ، ودفن هناك وكان شابًا[٢] .

وممن درَّسَ بها تلميذ أبي النجيب : أبو الحَسَن ابن الغبيري المتوفى سنة ٦١٥ هـ على ما ذكره ابن الدُّبيثي ، قال : « علي بن روح بن أحمد بن الحسن ابن عبد الكريم النهرواني ، أبو الحسن المعروف بابن الغُبَيْري . تفقه على مذهب الشافعي رضي الله عنه على الشيخ أبي النجيب السُّهروردي وصحبه وسمع منه ... ودَرَّس الفقه بمدرسة شيخه أبي النجيب السهروردي : سمعنا منه ، ونعم الشيخ كان فضلاً ودينًا وثقة »[٣] .

ومن المعيدين للشيخ أبي النجيب في هذه المدرسة : الفقيه الإمام أبو القاسم محمود بن المبارك بن عليّ الواسطي الأَصل البغدادي المولد والمنشأ الشافعي المنعوت بالمُجير مدرّس النظامية وغيرها المتوفى سنة ٥٩٢ هـ ترجمة الذهبي في تاريخ الإسلام ترجمة رائقة فيها فوائد جمة تَمَس المدارس[٤] ، وقال الزكي المنذري : « وحدث ببغداد وواسط وغيرهما ، وأعاد في شبيبته

---

(١) التكملة ٣ / الترجمة ٣٠٩٣ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٨٤ .

(٣) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٤٤٥ ، وتكملة المنذري : ٢ / الترجمة ١٦٢٥ .

(٤) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٩٩٠ - ٩٩١ .

للإمام أبي النجيب السُّهروردي بمدرسته ، ودَرَّس بدمشق ، وانتفع به جماعة ودَرَّس بشيراز وبعسكر مُكْرم وبواسط وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد »[١] .

وممن وعظ بها : محمد بن عبد الله المعروف بابن الظَّريف الواعظ البَلْخي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ[٢] والشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن أخي أبي النجيب المتوفى سنة ٦٣٢ هـ[٣] .

١٦ ـ مدرسة أبي حَكِيم النَّهرَواني : قبل ٥٥٦ هـ ـ ١١٦١ م

قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « إبراهيم بن دينار بن أحمد ، أبو حكيم النَّهرواني الفقيه الحنبلي ، من علماء بغداد .

كان من المشهورين بالزُّهد والورع والحلم الزائد ، وإليه كان المرجع في علم الفرائض . أنشأ مدرسةً من ماله بباب الأَزج وانقطعَ بها للعلم والعمل . وكان يُؤثر الخمول والتَّواضع والعيش الخَشن ويقتات من خياطة يده فيأخذ على القَميص حبتين فقط .

ولقد اجتهد جماعةٌ على إغضابه وإضجاره فلم يقدروا ، وكان صبورًا على خدمة الفُقراء والعَجائز والزَّمْنَى ولم يُر عابسًا قط . سمع أبا الحَسَن العلاف ، وابن بيان الرزاز وغيرَهما . روى عنه أبو الفرج ابن الجوزي ، وابنُ الأخضر ، وأبو نصر عُمر بن محمد المقرئ . وكان صدوقًا صحيحَ السماع ، ولد سنة

---

(١) التكملة ١ / الترجمة ٣٦٣ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ / ٤٧٤ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٢ / ٣٧٥ .

إحدى وثمانين وأربع مئة ، وسمع أيضا من أبي الخطاب الكَلْوَاذاني ، وتفقه على صاحبه أبي سَعْد بن حمزة وقرأ عليه كثيرًا »[١] .

وقال ابن الجوزي : « وأعطي المدرسة التي بناها ابن الشُّمحل بالمأمونية وأعدتُ درسَهُ فبقي نحو شهرين فيها وسُلِّمت بعده إليَّ فجلستُ فيها للتدريس . وله مدرسة بباب الأزج كان مقيمًا بها ، فلما احتُضِرَ أسندها إليَّ ... وتوفي يوم الثلاثاء بعد الظهر ثالث عشر جُمادي الآخرة من سنة ست وخمسين وخمس مئة »[٢] .

١٧ ـ مدرسة ابن الشُّمحل ٥٥٦ هـ ـ ١١٦١ م

أنشأها أبو القاسم عمر بن ثابت ابن الشمحل الحنبلي بالمأمونية ، وعهد بها إلى الشيخ أبي حكيم النهرواني ، قال بن الجوزي في حوادث سنة ٥٥٦ هـ : « وفي يوم الاثنين حادي عشر ربيع الآخر فتحت المدرسة التي بناها ابن الشمحل في المأمونية وجلس فيها الشيخ أبو حكيم مدرسًا وحضر جماعة من الفقهاء »[٣] ، وقال في ترجمته : « وأُعطي المدرسة التي بناها ابن الشمحل بالمأمونية وأعدتُ درسَهُ فبقي نحو شهرين فيها وسُلِّمت بعده إليَّ فجلستُ فيها للتدريس »[٤] ، ولكن هذه المدرسة لم تدم ، قال مؤرخ بغداد محب الدين ابن النجار في ترجمة

---

(١) تاريخ الإسلام : ١٢ / ١٠٩ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٢٠١ ، وينظر : مرآة الزمان لسبطه ٨ / ٢٣٦ ، وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي : ٤ / الترجمة ٢٧٣١ ، وعقد الجمان للعيني ١٧ / الورقة ٣٤٢ - ٣٤٣ ، والذيل لابن رجب ١ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) المنتظم : ١٠ / ٢٠٠ .

(٤) المنتظم : ١٠ / ٢٠١ .

ابن الشمحل : « من ساكني المأمونية ، وكان يتولى بعض الأعمال الديوانية وعلت مرتبته وارتفع شأنه وصار له قرب من الدولة واختصاص فبني مدرسة للمتفقهة من أصحاب أحمد بن حنبل ، ودرّس بها أبو حكيم النهرواني ، وبعده ابن الجوزي ، وجُعلت فيها خزانة كتب نفيسة . ثم إنه قُبض عليه وسُجن إلى أن هلك ، ولم تثبت وقفية تلك البقعة فبيعت وصارت دارًا لبعض الأمراء ، وأخذت الكتب التي كانت فيها » .

ثم نقل من تاريخ أبي الفضل أحمد بن صالح بن شافع قوله : « وبني مدرسة درب الشوك بشارع المأمونية حسنة وأودعها كتبًا حسنةً ، فلم يزل فساد التدبير ممن سكنها وسوء التوفيق المعروفين من خلاله حتى طرق عليه بذلك فسعي في تعطيلها وتبطيلها وسد بابها ونقل ما فيها من الكتب وأخرج الذي كان فيها على أقبح وجه »[١] .

١٨ ـ مدرسة ابن هبيرة : ٥٥٧ هـ ـ ١١٦٢ م

أنشأها الوزير القدير والعالم الشهير عَوْن الدين أبو المظفر يحيى بن محمد ابن هُبيرة الدُّوري المولد البغدادي الدار الشيباني (٤٩٩ ـ ٥٦٠ هـ) في محلة باب البصرة سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢م[٢] ، فهي أول مدرسة أنشئت في الجانب الغربي من بغداد ، لكنها لم تَدُم طويلاً ولم تشتهر بسبب تغير الدولة على أُسرته بعد وفاته ومصادرة كتب المَدْرسة وبيعها[٣] .

وأول من درس بها هو الفقيه أبو الحسن عليّ بن محمد بن عليّ البَرَاندسي

(١) التاريخ المجدد ، الورقة ٩٥ – ٩٦ من مجلد باريس .

(٢) المنتظم ١٠ / ٢٠٣ .

(٣) مرآة الزمان : ٨ / ٢٦٠ – ٢٦٢ ، و تاريخ الإسلام : ١٢ / ١٨٧ .

المقرئ المعروف بابن الزَّيْتوني المتوفى سنة ٥٨٦ هـ قال ابن نُقطة البغدادي : « سمع المسند من أبي القاسم ابن الحُصَيْن ، وسمع من أبي غالب أحمد بن الحَسَن ابن البناء وإسماعيل ابن السمرقندي ، وأبي البركات الأنماطي ، وقرأ القرآن بالروايات على أبي محمد عبد الله بن علي ابن بنت الشيخ أبي منصور الخَيَّاط . وكان شيخًا صالحًا دينًا عابدًا صحيح القراءات والسماع ثقة فاضلاً ، قاله لي أبو المعالي محمد بن أحمد بن شافع ، توفي في سادس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمس مئة »[١] .

وقال مؤرخ بغداد أبو الحسن القَطِيعي : « ناظر ودَرَّس وأفتى ، ولما بني عَوْن الدين ابن هبيرة مدرستَهُ بباب البصرة جعله المدرِّس بها »[٢] .

وممن درس بها من كبار الرواة العلماء الشيخ الفقه أبو عبد الله الحُسين بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مُسلم الرَّبَعي الزَّبيدي البغدادي المولد والدار المتوفى سنة ٦٣١ هـ وكان من مشاهير رواة « صحيح البخاري » سمعه عليه خلق عظيم ببغداد ودمشق وحلب وغيرها من البلاد[٣] ، وقال ابن رجب : « وتفقه في المذهب ، وأفتى ، ودَرَّس بمدرسة الوزير أبي المظفر ابن هبيرة »[٤] . وترجمه الذهبي في تاريخ الإسلام ترجمة طويلة وذكر قدومه إلى الشام فقال : « ولما قَدِمَ فرح السُّلطان الأشرف بقدومه وذلك في أثناء رمضان ، فأخذه إلى

(١) التقييد ، الورقة ١٨٥ .

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٧٣٠ . وتنظر ترجمته في تاريخ ابن النجار ، الورقة ٧ (باريس) ، وفي التكملة المنذرية ١ / الترجمة ١٠٦ وفيها مصادر أخرى .

(٣) تاريخ ابن الدبيثي : ٣ / ١٩٦ ، وتكملة المنذري ٣ / الترجمة ٢٥١٢ .

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة ٢ / ١٨٨ .

القلعة ولازمه وسمعَ منه « الصحيح » في أيام يسيرة ثم نزل إلى دار الحديث الأُشرفية ، وقد فُتحت من نحو شهر ، فحشد النّاس له وتزاحموا عليه وفرغوا عليه « الصحيح » في شوال . ثم حَدَّث بالكتاب وبمُسند الشافعي بالجبل (يعني : جبل قاسيون) ، واشتُهِر اسمُه وبعدَ صيتُه ، ثم سافرَ في الحال إلى بلده ، فدخلَ بغدادَ متمرضًا وتوفي إلى رحمة الله في الثالث والعشرين من صَفَر ، ودُفن بمقبرة جامع المنصور »[١] .

وقد ذكر الذهبي عشرات ممن سمع منه وروى عنه من بينهم عَشْر نسوة هن : خديجة بنت سَعْد ، وهدية بنت عبد الحميد ، وخديجة بنت الرَّضِي ، وفاطمة بنت الآمدي ، وخديجة بنت المَرَاتبي ، وفاطمة بنت البطَائحي ، وزينب بنت الإشيردي ، وست الوزراء بنت المُنَجّى ، وهدية بنت عَسْكر ، وفاطمة بنت الفراء .

وحينما توفي أبو القاسم مسعود ابن الوزير أبي المظفر ابن هبيرة سنة ٦٠٧ هـ دفن عند أبيه في هذه المدرسة[٢] مما يدل على وجودها ، لكن سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ أشار إلى اندثارها في أيامه[٣] .

١٩ ـ مدرسة ابن البل : قبل ٥٦٠ هـ ـ ١١٦٥ م

أنشأها الشيخ الصالح المُعَمَّر عز الدين أبو المعالي هبة الله بن أبي المُعَمَّر الحُسين بن الحَسَن بن علي بن البل البَغْدادي البَيِّع المعروف بابن أبي الأسود . ولد سنة ٥١٠ هـ وسمع من القاضي أبي بكر الأنصاري ، وأبي الفتح عبد الله

(١) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٤٢ .

(٢) التكملة ٢ / الترجمة ١١٧١ .

(٣) مرآة الزمان ٨ / ٢٤٠ .

ابن محمد ابن البيضاوي وأبي الحسن محمد بن أحمد بن صِرْما ، وحدث عنه ابن الديبثي وترجمه في تاريخه[١] ، ومن الشاميين الرحالة يوسف بن خليل ، والضياء المقدسي ، والنجيب عبد اللطيف الحَرّاني الذي ترجمه في « مشيخته »[٢] .

وذكره ابن نُقْطة في « إكمال الإكمال »[٣] ، والمنذري في « التكملة »[٤] ، وابن الفوطي في « تلخيص مجمع الآداب »[٥] ، والذهبي في « تاريخ الإسلام »[٦] ، وابن ناصر الدين في توضيحه لمشتبه الذهبي[٧] ، وذكروا أنه توفي سنة ٦٠٠هـ وقد بلغ التسعين .

أقام ابن البَنّ مدرسته هذه بالمحلة المسماة بالرَّيَّان (القسم الشمالي من باب الشيخ وحي الأكراد) وفَوَّضَ أمرها إلى القاضي عماد الدين أبي يَعْلى محمد بن محمد بن الحُسين ابن الفراء المعروف بأبي يعلى الصَّغير (٤٩٤ - ٥٦٠ هـ) ، وكان شيخ الحنابلة في وقته وله حَلْقة معروفة بجامع القَصْر وولي قضاء باب الأزَج وقضاء واسط ، وحضر المؤرخ البغدادي أبو الحسن ابن القطيعي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ درسه ، قال : « قرأتُ عليه شيئًا من المذهب وحضرتُ درسَهُ ولم يُر مثله في حُسن عبارته وعُذوبة محاورته وحسن سَمْته

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٥ / ٩٠ - ٩١ .

(٢) الورقة ٦٤ - ٦٥ .

(٣) إكمال الإكمال : ١ / ٣١٥ و ٢ / ٧٥٥ .

(٤) التكملة ٢ / الترجمة ٨٠٩ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٥٣٠ .

(٦) تاريخ الإسلام : ١٢ / ١٢٣١ .

(٧) توضيح المشتبه ٢ / ٥٥ و ٤ / ١٠٣ .

ولطافة طبع ولين معاشرة ولطف تفهيم .. جد واجتهدَ حتى صار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ذو خاطر عاطر وفطنة ناشئة ، أعرف الناس باختلاف أقوال الفقهاء ، ظهر علمه في الآفاق ، ورأى من تلاميذه من ناظر ودرّس وأفتى في حياته »(١) .

وقال ابن رجب : « ولما بني أبو المعالي ابن البل مدرسة بالريان ، جعلها للحنابلة ، وفوّض أمرها إلى القاضي أبي يعلى هذا »(٢) .

وممن دَرَّسَ بها ووعظ أيضًا الفقيه أبو العباس أحمد بن عُمر بن الحسين بن خلف القطيعي الواعظ المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ، والد أبي الحسن القطيعي مؤرخ بغداد وشيخ الحديث بالمستنصرية(٣) .

٢٠ ـ المدرسة البهائية : قبل سنة ٥٦٣ هـ ـ ١١٦٨ م

كانت هذه المدرسة قريبة من المدرسة النِّظامية بالموضع المعروف بباب المدرسة على الشط ، ولا نعلم مؤسسها ، كما لا نَدْري متى بنيت ، لكن أبا المحاسن يوسف بن عبد الله بن بُنْدار الدمشقي المتوفى في شوال سنة ٥٦٣ هـ كان من المدرسين بها ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٦٦ هـ : « وأُخذت مدرسة كانت للحنفية وقد كانت قديمًا للشافعية وهي بالموضع المسمى بباب المدرسة على الشط ، وقد حضرتُ فيها مناظرة يوسف الدمشقي وبيده كانت ، وآل أمرها إلى أن سُلِّمت إلى محمد البروي فَدَرَّس فيها وحضر قاضي القضاة وشيخ الشيوخ وحاجب الباب ومُدَرِّس النظامية وابن

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ٢٤٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٣٠٢ .

سديد الدولة كاتب الإنشاء »[١] .

ومدرسها البَرَوي[٢] الذي أشار إليه ابن الجوزي هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن سعد بن عبد الله البَرَوي الفقيه الشافعي ، ترجمة جمال الدين ابن الدبيثي في تاريخه ، فقال : « أحد علماء عصره ، والمُشار إليه بالتقدم في معرفة الفقه والنظر وعلم الكلام والوعظ وحُسن العبارة ، مع فصاحةٍ في لسانه ، وبلاغةٍ في لفظهِ وَبَيانِه . تفقه بنَيْسابور على الشيخ أبي سَعْد محمد بن يحيى ، وكان من أنبل أصحابه ، وخرجَ من خُراسان إلى الشام وأقامَ بدمشق مدةً ، ثم قدم بغداد في سنة سبع[٣] وستين وخمس مئة ، وصادفَ بها قبولاً عند أهلها ، وتكلم بها في مسائل الخلاف ، وأحسن النَّظَر ، ودَرَّس بها الفقه والأُصول والجَدَل بالمدرسة المعروفة بالبَهَائية قريبة من النِّظامية ، وكان يحضرُ دَرْسَهُ خَلْقٌ من الفُقهاء ، وجلسَ بالمدرسة النظامية ، وأعجبَ الناسَ كلامُهُ ، وكان المدرِّس بها يومئذ أبو نصر أحمد بن عبد الله الشَّاشي ، فكان إذا توسَّط المجلس وقُرئت بين يديه النُّظَّائر يلتفتُ إلى موضع التَّدريس وينشد مُعَرِّضًا بما في نَفْسِه من طَلَبِهِ ومشيرًا إليه قول المتنبي[٤] :

---

(١) المنتظم : ١٠ ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) هذه النسبة ضبطها ابن خلكان بفتح الباء الموحدة والراء وبعدها واو وقال : ولا أعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي ، ولا ذكرها السمعاني ، وغالب ظني أنها من نواحي طوس (وفيات ٤ / ٢٢٥) .

(٣) وضع الناسخ لفظة « ست » فوقها وأشار إلى أنه وجدها هكذا في الأصل دلالة على الشك في إحداهما .

(٤) ديوانه ٥٥ .

بكيتُ يارَبْعُ حتى كدتُ أبكيكا وجُدتُ بي وبنفسي في مَغَانيكا
فَعِمْ صباحًا لقد هَيَّجت لي شَجَنًا واردُد تحيتَنا إنَّا مُحيُّوكا
بأي صَرْف زمانٍ صرتَ مُتَّخذًا ريمَ الفَلاَ بدلاً من ريم أهليكا

وذلك لِمَا كان عنده من طلب التدريس بالمدرسة النِّظامية ، ولَعَمْري لقد كان أهلاً لذلك ، ومَوْعُودًا به لو بقي ، ولكن أصابته عين الكمال فَشَوَّشَت عليه الأحوال ، واخترمته المَنيّة قبل بلوغ الأُمْنية ... فتوفي بين الظُّهر والعَصْر من يوم الخميس السادس عَشَر من شهر رمضان سنة سبع وستين وخمس مئة وصلي عليه يوم الجمعة السابع عشر منه بجامع القَصْر الشريف ، وحَضَر خلقٌ من الأعيان والأماثل ، ودفن بباب أبرز بتُربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي »[١] .

وذكر ابن الدُّبيثي من مدرسيها : الفقيه أبا الخَيْر داود بن بُنْدار بن إبراهيم الجيلاني الشافعي المنعوت بالمُعين المتوفى ببغداد في رجب سنة ٦١٨ هـ ، قال : « من أهل جيلان . قدم بغداد ، وتفقه بها على مذهب الشافعي رضي الله عنه بالمدرسة النظامية ... وأعاد لمدرسيها سنين كثيرة ، ودَرَّس بالمدرسة البهائية القريبة من النظامية »[٢] .

وقال المنذري : « قدم بغداد وتفقه بها على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بالمدرسة النظامية على مدرسها الإمام أبي المحاسن يوسف بن عبد اله بن بُنْدار الدمشقي وغيره ، وأعاد بها للمدرسين بها سنين كثيرة ، ودَرَّس بالمدرسة البهائية التي بقرب النِّظامية وأفتى »[٣] .

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢٥٨ .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ١٨٢٢ .

وبقيت المدرسة موجودة إلى القرن الثامن الهجري في الأقل ، فقد ذكر ابن رافع السلامي من المدرسين بها صدر الدين محمد بن محمد بن زنكي الخُراساني الإسفراييني المولود سنة ٦٧٧ هـ فذكر أنّه درس بها إضافة إلى التّدريس بمدرسة الأصحاب[١] .

٢١ ـ مدرسة الطيوريين : قبل سنة ٥٦٣ هـ ـ ١١٦٨ م

بُنيت هذه المدرسة للفقيه الشهير أبي المحاسن يُوسف بن عبد الله بن بُندار الدمشقي ثم البغدادي المتوفى في شوال سنة ٥٦٣ هـ ، فقد قال ياقوت الحموي في ترجمته : « وبنيت له مدرسة بباب الأزج وكان يذكر فيها الدرس ومدرسة أُخرى عند الطُّيوريين ورحبة الجامع »[٢] .

والطيوريون سوق مشهور من أسواق الجانب الشرقي تباع فيه الطيور وهو عند رحبة جامع القصر (جامع الخلفاء) باقٍ إلى يوم الناس هذا ، ولا نعرف لها مدرسًا بعد أبي المحاسن الدمشقي .

٢٢ ـ المدرسة الفَخْرية : ٥٦٨ هـ ـ ١١٧٢ م

منسوبة إلى مُنْشئها فخر الدين أَبي المظفر الحَسَن بن هبة الله بن المطلب العالم الزّاهد (٤٩١ ـ ٥٧٨ هـ)[٣] .

---

(١) منتخب المختار : ٢٠٥ .

(٢) معجم البلدان ٢ / ٤٧٠ .

(٣) ترجمه ابن الدبيثي في تاريخه ٣ / ١٤٣ ، والسبط في المرآة ٨ / ٣٧١ ، وابن الفوطي في التلخيص ٤ / الترجمة ٢٠٦٣ ، والذهبي في تاريخ الإسلام : ١٢ / ٦١١ ، والسير ٢١ / ٩٧ .

وتعرف هذه المدرسة أيضا بمدرسة فخر الدولة[١] ، وبمدرسة دار الذهب[٢]. أنشأها فخر الدولة بعقد المصطنع (وهي المحلة المعروفة اليوم بقاضي الحاجات) برسم الفقيه الشافعي الشهير أبي القاسم يحيى بن علي ابن فَضْلان[٣] ، قال ابن الساعي : « وَبَني له فخر الدولة أبو مظفر بن المطلب المدرسة التي عند عَقْد المُصْطَنع المعروفة بدار الذهب وجعله مدرسها ، وأعادَ له الدرس القاضي أبو علي يحيى بن الربيع ، وانتفع به خلقٌ كثير وعَلَّقوا دروسَهُ ، وحضروا مناظرته »[٤] . وقد افتتحت هذه المدرسة في ربيع الآخر من سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢م كما نص عليه ابن الجوزي في حوادث السنة المذكورة ، فقال : « وفي ربيع الآخر دَرَّس ابن فَضْلان في المدرسة التي عملها فخر الدولة ابن المطلب عند عقد المأمونية »[٥] . وقال الزكي المنذري : « ودَرَّس ببغداد بمسجدِ اللُّوزية المحلة المشهورة ببغداد ثم دَرَّس بمدرسة فخر الدولة ابن المطلب ، وأعاد له الدروس الإمام أبو عليّ يحيى بن الرَّبيع بن سُليمان وانتفع به جماعة كبيرة ، وكان مقدمًا في علم الخلاف والجدل ، عَذْب الكلام مليح العبارة »[٦] .

وقال جمال الدين ابن الدُّبيثي في ترجمة فخر الدولة ابن المطلب : « له آثار حسنة منها مدرسة الفقهاء الشافعية شرقي بغداد مجاورة لعقد المصطنع ،

---

(١) التكملة ١ / الترجمة ٤٩١ .
(٢) ابن الساعي : الجامع المختصر ٩ / ١٢ .
(٣) التكملة ١ / الترجمة ٤٩١ .
(٤) الجامع المختصر ٩ / ١٢ .
(٥) المنتظم : ١٠ / ٢٤٠ .
(٦) التكملة ١ / الترجمة ٤٩١ .

ورباط للصوفية مُصاقبها ومسجد متصل بذلك ... ووقف على ذلك من أملاكه ما يصرف في عمارته ومؤنة من يكون فيه »[١] .

ثم تولى التدريس بها بعده ولده العالم الكبير قاضي القضاة محيي الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى (٥٦٨ ـ ٦٣١ هـ) قال عصريه جمال الدين ابن الدُّبيثي : « تفقه محمد هذا على أبيه ، وأحسن الاشتغال ، وتكلّم في المسائل والمناظرات وأجاد الكلام . ورحل إلى خراسان وناظرَ مع عُلمائها ، وعاد إلى بغداد ، ودَرَّس بعد أبيه بمدرسة فخر الدولة أبي المظفَّر ابن المطلب بعقد المُصْطَنع ، وتخرَّج به في الفقه جماعة ، ودَرَّس بالمدرسة النظامية يوم السبت ثالث شهر ربيع الأول سنة أربع عَشرة وست مئة ، وخُلِعَ عليه خلعة سوداء ، وحضرَ عنده الولاة والفقهاء ، وعُزِلَ في سابع ذي القَعْدة سنة ست وست مئة ، ووَلِيَ قضاء القُضاة يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسع عَشرة وست مئة والنظر في الوقوف والمدارس »[٢] .

وممن ولي التدريس بها القاضي أبو بكر محمد بن يحيى بن مظفر البَغْدادي المعروف بابن الحُبَيْر[٣] (٥٥٩ ـ ٦٣٩ هـ) ، قال ابن النجار : « وولي تدريس الإسبابذية التي بين الدَّرْبين وصارت له حَلْقة بجامع القصر ويتكلم عنده الفُقهاء فيها ، وناب في الحُكْم والقضاء عن ابن فَضْلان مدة ولايته ، ثم وَلِيَ التدريس بمدرسة ابن المُطَّلب ،ثم ولي تدريس النظامية »[٤] . ومع أننا لا نعلم بالضبط

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٣ / ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٧٢ .

(٣) المنذري : التكملة ٣ / الترجمة ٣٠٤٥ .

(٤) نقله عنه الصفدي في الوافي ٥ / ٢٠٧ .

متى كانت ولايته التدريس بها ولكن صاحب الكتاب المسمى بالحوادث يشير إلى استمراره بالتدريس فيها سنة ٦٢٦ هـ كما نص على ذلك في حوادث السنة المذكورة[١] .

ومنهم : مجد الدين أبو طاهر علي بن محمد بن أحمد بن جعفر الواسطي البغدادي مُدرس البَشيرية[٢] (٦٢٧ ـ ٦٨٣ هـ) ، وعماد الدين عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق الحَرْبوي المعروف بابن الخَوَّام من أهل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي)[٣] .

أما المعيدون بها فعرفنا منهم : أبا عليّ يحيى بن الربيع بن سُليمان بن حراز الواسطي البغدادي[٤] (٥٢٨ ـ ٦٠٦ هـ) ، وأبا نصر ثعلب بن علي بن نصر بن علي البغدادي المعروف بابن المحارية[٥] (٥٥٤ ـ ٦٢٦ هـ) والفقيه أبا الحسن عليّ بن الخطاب بن مقلد الواسطي المحدثي المقرئُ الشافعي الضرير[٦] (٥٦١ ـ ٦٢٩ هـ) وكان من طلبتها المتميزين أقضى القضاة نظام الدين عبد المنعم البندنيجي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ[٧] .

---

(١) الحوادث ١٨ .

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١٩١ .

(٣) الدرر الكامنة ٢ / ٤٠٠ .

(٤) التكملة المنذرية : ٢ / الترجمة ١١٢٦ .

(٥) طبقات السبكي ٨ / ١٣٦ – ١٣٧ .

(٦) التكملة المنذرية ٣ / الترجمة ٢٤٠٩ .

(٧) الكتاب المسمى بالحوادث ٣٩٥ .

وكانت في هذه المدرسة مكتبة جليلة أشار إليها ابن الفُوطي في ترجمة مؤسسها فقال : « وعَمَّر المدرسة الفخرية بعقد المصطنع في المأمونية وجعل بها خزانة كتب جامعة لأنواع العلوم »[١] .

٢٣ ـ مدرسة ابن الجوزي بدرب دينار : ٥٧٠ هـ ـ ١١٧٤ م

هي مدرسة خاصة أنشأها العالم الواعظ الشهير جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القُرشي البَكْري الصدِّيقي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ[٢] بدرب دينار (شارع المأمون اليوم) وابتدأ التدريس بها في محرم سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م قال في حوادث السنة المذكورة : « وفي يوم الأحد ثالث المحرم ابتدأتُ بإلقاء الدروس في مدرستي بدرب دينار فذكرتُ يومئذ أربعة عشر درساً من فنون العلوم »[٣] .

والظاهر أنه كان يستخدمها للوعظ أيضاً وليسَ للدراسة المتخصصة ، قال في حوادث سنة ٥٧٤ هـ : « وتكلَّمتُ يوم السبت مفتتح رمضان في مدرستي بدرب دينار فكان الزحام خارجًا عن الحد حتى غلق الأبواب وقصت ثلاثون طائلة وتاب خلق من المُفْسدين »[٤] .

والظاهر أنَّ التدريس بها كان مقتصرًا على ذريته إذ لا نعرف مدرسًا دَرَّس بها من غيرهم مع أن الأخبار تشير إلى وجودها في منصف القرن

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٠٦٣ .

(٢) ترجمته في التكملة المنذرية ١ / الترجمة ٦٠٨ والتعليق عليها .

(٣) المنتظم : ١٠ / ٢٥٠ .

(٤) المنتظم : ١٠ / ٢٨٥ .

السابع الهجري[١] (الثالث عشر الميلادي) ، وقال صاحب « العَسجَد المسبوك » في ذكر من قُتل بواقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ من أولاد ابن الجوزي : « تاج الدين أبو الكرم عبد الكريم بن يوسف ، وكان شابًا ذكيًا حَصَّلَ طَرفًا من علم النحو والفقه . وقال الشعر ، ودَرَّسَ بالمدرسة المنسوبة إليهم ، وَوَليَ الحسبة أيضًا ، وقُتل وعمره نَيِّفٌ وعشرون سنة »[٢] .

٢٤ ـ مدرسة بنفشا : ٥٧٠ هـ ـ ١١٧٤ م

هي الجهة الصَّالحة بَنَفْشا ابنة عبد الله عَتِيقة الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحَسَن المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ ، قال المُنْذري : « كانت أحظَى جهاته عنده ، وكانت كثيرة الرَّغبة في أفعال البِر عَمَّرَت مساجد لله تعالى في غير موضعٍ ووقفت المدرسة بباب الأزَج على أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وعقدت على دجلة جِسْرًا للسابلة »[٣] .

وهذه المدرسة كانت في الأصل دارًا لنظام الدين أبي نصر المظفر بن علي ابن جَهِير وزير الخليفة المقتفي لأمر الله ، ثم استملكتها بَنَفْشا بعد وفاته ، وأوقفتها على الحنابلة ، وسَلَّمَتها إلى الفقيه أبي جعفر ابن الصَّبّاغ فبقي المفتاح معه أيامًا ثم استعادته منه وسَلَّمته إلى ابن الجوزي حيث تَوَلَّى التدريس والوعظ بها في شعبان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ، قال في حوادث السنة المذكورة من

---

(١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٥٨٠ من الكاف والترجمة ٢٨٨ من الميم .

(٢) العسجد المسبوك ٦٣٦ .

(٣) التكملة ١ / الترجمة ٦٦٠ .

« المنتظم » : « وفي يوم الخميس خامس عِشْري شعبان سُلِّمت إليَّ المدرسة التي كانت دارًا لنظام الدين أبي نَصْر بن جَهِير وكانت قد وصلت ملكيتها إلى الجهة المُسماة بَنَفْشا فجعلتها مدرسةً وسَلَّمتها إلى أبي جعفر ابن الصباغ فبقي المفتاح معه أيامًا ثم استعادت منه المفتاح وسَلَّمته إليَّ من غير طلب كان مني ، وكُتِبَ في كتاب الوَقْف أنها وقفٌ على أصحاب أحمد ، وتُقُدِّمَ إليَّ يوم الخميس المذكور بذكر الدَّرْس فيها ، فحضر قاضي القُضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد ، وخُلِعَت عليَّ خلعة ، وخرجَ الدُّعاة بين يدي والخَدَم ، ووقف أهل بغداد من باب النُّوبي إلى باب المدرسة كما يكون في العيد وأكثر ، وكان على باب المدرسة ألوف والزّحام على الباب ، فلما جلستُ لإلقاءِ الدَّرْس عُرِضَ كتابُ الوقف على قاضي القضاة وهو حاضرٌ مع الجماعة فقُرِئَ عليهم وحَكَمَ به وأنفذَهُ ، وذكرتُ بعد ذلك الدرسَ ، فألقيتُ يومئذ دُرُوسًا كثيرةً من الأصول والفُرُوع ، وكان يومًا مشهودًا لم يُر مثله »(١) .

وقال ابن الجَوْزي في حوادث سنة ٥٧١ هـ : « وفي رمضان كُتِبَ على حائط المدرسة التي وقفتها الجهة وسَلَّمتها إليَّ بخط القطاع في الآجر : وَقفْت هذه المدرسة الميمونة الجهة المعظَّمة الشريفة الرَّحيمة بدار الرَّواشني في أيام سيدنا ومولانا الإمام المُستضيء بأمر الله أمير المؤمنين على أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وفَوَّضت التدريس بها إلى ناصر السنة أبي الفتح (كذا) ابن الجوزي »(٢) . ولا نعرف من مدرسيها بعد ابن الجوزي أحدًا .

---

(١) المنتظم : ١٠ / ٢٥٤ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٢٥٨ .

٢٥ ـ مدرسة زَيْرَك : قبل سنة ٥٧٣ هـ ـ ١١٧٧ م

وتُعرف أيضا بالمدرسة الزَّيْركية ، وبمدرسة سُوق العميد لوقوعها في السوق المذكور الذي هو في مكان سوق المَيْدان الحالي . ولا نعرف مَن زَيْرَك هذا ، ولعله أحد رجالات السلاجقة .

وأول من عرفنا من مدرسيها هو الفقيه الحَنَفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار السِّمناني الأصل البَغْدادي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م ، قال ابن الدُّبيثي : « من أهل سِمْنان ، ولد بها ونشأ ، ورحل إلى مَرْو ، وتفقه على أبي الفَضْل الكِرْماني ، وجال في بلاد المشرق ، ثم قَدِمَ بغدادَ واستوطنها إلى حين وفاته ، ودَرَّس بها الفقه على مَذْهب أبي حنيفة بمدرسةٍ بسوق العَمِيد تُعرف بمدرسة زَيْرَك ، وكان أحد شيوخ وقته في مذهبه يُفْتي ويدرس إلى أن مات ... وتُوفي في جُمادي الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة ، ودُفن بمقبرة الوردية »[١] .

ومن مُدرسها القاضي الفقيه أبو محمد عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن اللمغاني الحنفي من أهل محلة أبي حنيفة (٥٢٠ ـ ٦٠٥ هـ) قال ياقوت في « لمغان » من « معجم البلدان » : « ممن رأيناه وأدركناه .. الفقيه المتقن من أهل باب الطاق ومَشْهد أبي حنيفة ، سكنَ دار الخلافة بالمُطْبَق ، تفقه على أبيه وعَمِّه ، ودَرَّس بمدرسة سُوق العميد المعروفة بِزَيْرَك »[٢] .

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ١ / ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) معجم البلدان ٥ / ٨ .

وذكر تدريسه ابن الدُّبيثي[١] ، وابن الساعي[٢] ، والقرشي[٣] والتميمي في « الطبقات السنية »[٤] .

وقد خلفه في التدريس بها ولده كمال الدين عبد الرحمن (٥٦٤ هـ ـ ٦٤٩ هـ) مدرس الحنفية بالمستنصرية[٥] .

٢٦ ـ مدرسة ابن بكروس : قبل ٥٧٣ هـ ـ ١١٧٧ م

وهي من المدارس الخاصة بالجانب الشرقي من بغداد أنشأها الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن المبارك ابن بَكْروس الدِّيْنَوَري ثم البغدادي الحنبلي المعروف بابن الحَمَّامي المتوفى سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ م بالقرب من منزله بَدْرب القيار (تحت التكية) ليدرّس بها الفقه الحنبلي ، قال ابن الدُّبيثي في ترجمته : « من ساكني دَرْب القَيَّار ، تفقه على القاضي أبي خازم محمد بن محمد ابن الفَرَّاء وعلى أبي بكر أحمد بن محمد الدينوري ، وحَصَّل معرفة المَذْهب ، ودَرَّس بمدرسةٍ له أنشأها مجاورة لمنزله وكان صالحًا ... وتفقه به جماعة ، كتبتُ عنه يسيرًا ، وسمعتُ شيخنا أبا محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز بن الأخضر يذكره ويثني عليه ثناءً حسنًا ويصفه بالعبادة وكثرة الأوراد ، لقنني القُرآن الكريم .. أنبأنا عُمر بن عليّ القُرشي الحافظ ، قال : سألتُ أحمد بن بكروس عن مولده ، فقال : إما في سنة إحدى أو اثنتين وخمس مئة ، وقال

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ١١٧ .

(٢) الجامع المختصر ٩ / ٢٧٦ .

(٣) الجواهر المضيئة ١ / ٣١٥ .

(٤) الطبقات السنية ٢ / الورقة ٤٩٨ (نسخة التيمورية) .

(٥) تاريخ علماء المستنصرية ١ / ١٢٤ ، وتاريخ ابن الدبيثي ٤ / ٣٦ .

صدقة بن الحسين الناسخ في تاريخه : وفي عشية الثلاثاء خامس عشر صفر سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة تُوفي أحمد بن بَكْروس وصُلِّي عليه يوم الأربعاء بجامع القصر ودُفن بباب حرب »[١] . وقال ابن رجب : سُئِلَ عنه الشيخ موفق الدين (المقدسي) فقال : كان فقيها صاحب مسجد ومدرسة يتكلم فيها في مسائل الخلاف ويَدَرِّس ، وكان يتزهد ، وكان متزوجًا بابنة ابن الجوزي[٢] .

وبعد وفاة أبي العباس بن بَكْروس خلفه في التدريس بها وبمسجده تلميذه أبو العباس أحمد بن أبي غالب بن أبي عيسى بن سَيْحُون الأبرودي الحَبَابِيني ، قال ابن الدُّبيثي : « منسوب إلى قرية تُعرف بالحَبَابين بدُجيل ... وتفقه على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله على أحمد بن بَكْروس وخَلَفَه بعد وفاته في مسجده بدرب القَيّار . وتُوفي شابًا في يوم الجمعة عاشر رَجَب من سنة أربع وسبعين وخمس مئة ، وصُلِّي عليه يوم الجمعة بجامع القصر الشريف ، ودُفن بباب حَرْب عن نَيِّفٍ[٣] وأربعين سنة فيما قال عبيد الله بن عليّ المارستاني »[٤] ، وقال ابن رجب نقلا من تاريخ ابن النجار : « ولما مات ابن بكروس خلفه في مسجده ومدرسته »[٥] .

فلما مات الحَبَابيني تولى التدريس بها ـ على ما يظهر ـ أبو الحسن عليّ أخو أحمد بن بكروس الأصغر ، قال ابن رَجَب : « عليّ بن محمد بن المبارك بن

---

(١) تاريخ مدينة السلام ٢ / ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٣٣٨ .

(٣) وقع في المطبوع : « ست » من غلط الطبع ، فيصحح .

(٤) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٥) الذيل ١ / ٣٤٣ .

بكروس البغدادي الفقيه أبو الحسن أخو أبي العباس أحمد السابق ذكره . ولد يوم الاثنين ثالث رَجَب سنة أربع وخمس مئة ، وتفقه في المذهب ، وبرع وأفتى ، وناظرَ ودَرَّس بمدرسة أخيه آخرًا ... ولزم بيته في آخر عُمُره لمرض حصلَ له إلى أن توفي يوم الاثنين ثالث ذي الحجة سنة ست وسبعين وخمس مئة[١] وترجمه ابن الدُّبيثي في تاريخه[٢] ، وابن النجار في « التاريخ المجدد »[٣] ، والذهبي في « تاريخ الإسلام »[٤] ، وغيرهم .

وممن درس بها بعد أبي الحَسَن علي ولده شمس الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن المبارك بن بَكْروس البغدادي الفقيه المُعَدَّل (٥٥٧ ـ ٦١١ هـ) قال ابن الدُّبيثي : « اشتغل إبراهيم بالفقه على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، على عَمِّه وعلى أبيه ، وسمعَ الحديث منهما ومن أبي الفَتْح محمد ابن عبد الباقي بن سَلْمان المعروف بابن البَطِّي وغيره ، وشهد عند قاضي القضاة أبي الفضائل القاسم بن يحيى ابن الشَّهْرَزوري »[٥] ، وقال ابن رَجَب : « برع وأفتى ، وناظر ، ثم أقبل على إلقاء الدُّروس بمدرستهم بدرب القيار »[٦] . ثم دخل إبراهيم في الوظائف الدنيوية ولم تُحمد سيرته فيها بسبب ما سببه من الأذى للناس[٧] .

---

(١) الذيل ١ / ٣٤٨ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٤٩٧ .

(٣) التاريخ للمجدد ، الورقة ١٧ (باريس) .

(٤) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٥٨٨ .

(٥) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٤٦٩ .

(٦) الذيل : ٢ / ٦٩ .

(٧) ينظر تعليقي على ترجمته في التكملة المنذرية ٢ / الترجمة ١٣٣٩ .

وكان في هذه المدرسة مقرئ يُقرئ الناس القرآن ، قال ابن الدبيثي في ترجمة بدل بن أبي طاهر بن شيرشهر الجيلاني : « قدم بغداد واستوطنها إلى حين وفاته (سنة ٥٨٩) وكان ينزل بدرب القيار ، ويقرئ الناس القرآن المجيد بمدرسة ابن بكروس »[١] .

٢٧ ـ المدرسة القيصرية : قبل سنة ٥٨٩ هـ ـ ١١٩٣ م

كانت هذه المدرسة بالقُرب من مدرسة الشيخ أبي النجيب السُّهْرَوَرْدي التي مر ذكرها . ولا يُعلم مؤسسها ، غير أنها كانت موجودة قبل سنة ٥٨٩هـ ، وهي السنة التي انتقل فيها مدرسها منها إلى التَّدْريس بمدرسة زُمرد خاتون الآتي ذكرها . قال ابن الدُّبيثي في ترجمة مدرسها محمد بن أبي عليّ بن أبي نَصْر الفقيه الشافعي التُّوقاني (٥١٦ ـ ٥٩٢ هـ) : « تفقه بنَيْسابور على أبي سَعْد محمد بن يحيى النَّيْسابوري ، وبرعَ في فَنّه ، وأحسن الكلامَ في المناظرة ، ثم قدم بغدادَ في حال كهولتِه وأقامَ بمدرسةٍ قريبةٍ من رباط الشيخ أبي النَّجيب السُّهْرَوردي تُعرف بالقَيْصَرية مدةً وتردد إليه جماعة من المتفقهة من غير إقامة ، وكان يذكر لهم دَرْسًا من تعليقه وجَدَله ، وتجرى عنده مباحثات ومناظرات ينتفع بها جماعة من المترددين إليه والحاضرين عنده ، وهو مقيمٌ على ذلك وعنده طَلَبٌ للتدريس بالمدرسة النِّظامية ورغبة فيه ، والزَّمان غير مساعد ، إلى أن أنشأت الجهة الشريفة الكريمة والدة سيدنا ومولانا الإمام المُفْتَرض الطاعة على كافة الأنام النَّاصر لدين الله أمير المؤمنين ـ خَلَّد الله ملكه ورضي عنها ـ مدرسةً مُجاورةً لتُربتها الشريفة بالجانب الغربي للفقهاء الشافعية وتَقَدَّمت بأن يكون

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٣ / ٢٩ .

مُدَرِّسها ، فأُحضر وخُلِعَ عليه خلعة جميلة وعِمّامة وطَرحة ، ودَرَّس بها يوم الخميس تاسع عِشْري شَوّال سنة تسع وثمانين وخمس مئة »(١) .

ولا نعرف بعد هذا المُدرس خبرًا عن هذه المدرسة . ويشير نص ابن الدُّبيثي هذا إلى عدم وجود قسم لسكنى الطلبة ، أو عدم وجود دراسة منتظمة فيها ، فلعلها أهملت بعد هذا التاريخ .

٢٨ ـ مدرسة زمرد خاتون : ٥٨٩ هـ ـ ١١٩٣ م

أنشأتها السيدة زمرد خاتون بنت عبد الله والدة الخليفة الناصر لدين الله وزوجة الخليفة المستضيء المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ . وكانت كثيرة الرغبة في أفعال البر عَمَّرت المدارس والرُّبط والجوامع والمساجد ، ووقفت وقوفًا كثيرة منها هذه المدرسة التي أنشأتها بجوار تُربتها التي ما زالت باقية إلى اليوم بالجانب الغربي من مدينة بغداد حيث تُعرف بين العامة بالست زبيدة بالقرب من قبر معروف الكرخي الزاهد المشهور(٢) .

وتُعرف هذه المدرسة بمدرسة الأصحاب أيضًا(٣) . وهي من كُبريات المدارس ببغداد ، وقد حالفها الحظ فاستمر التدريس فيها بقية العصر العباسي وطيلة العصرين : المغولي والجلائري ، بل بقي بنيانها قائما حتى العهد العثماني .

افتتحت هذه المدرسة يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال سنة ٥٨٩هـ ودَرَّس بها العالم الفقيه الشافعي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي عليّ بن

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ١٨٤ .

(٢) ينظر التكملة المنذرية ١ / الترجمة ٧٢٠ وتعليقنا عليها .

(٣) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٩٨ من الكاف .

أبي نَصْر التُّوقاني ثم البغدادي دفين النجف (٥١٦ هـ ـ ٥٩٢ هـ) ، قال جمال الدين ابن الديبثي بعد أن ذكر تَدْريسه بالمدرسة القَيْصرية وانتقاله إلى التدريس بهذه المدرسة : « ودَرَّس بها يوم الخميس تاسع عِشْري شَوَّال سنة تسع وثمانين وخمس مئة ، وأُجري له الجراية الحَسَنة والمُشاهرة الكثيرة ، وأعاد له دَرْسَهُ ابنُه وحضر عنده الخَلْقُ الكثير من المدرسين والفُقهاء والصُّوفية والأعيان وأُسْكِن بدارٍ بالمدرسة المذكورة ، وانتقلَ إليه جماعةٌ من المتفقهة سكنوا بها أيضًا . ولم تزل حاله جارية على السَّداد من التَّدريس والمناظرة والفتوى والرواية فإنَّه حَدَّث عن شيخه محمد بن يحيى بأربعين حديثًا جمعها وسمع منه جماعة ، وقد لقيتُه وما طلبتُ منه السماع وقد أجازَ لي ، إلى أن خرجَ إلى الحج في ذي القَعْدة سنة إحدى وتسعين وخمس مئة فحج وعادَ فلما وصل الكُوفة تُوفي بها في يوم الخميس ثالث صَفَر سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة ودُفن بها »[١] . وقال أبو شامة في ذيل الرَّوضتين : « قَدِمَ بغداد فاستوطنها ، وولي التدريس بمدرسة أم الخَليفة المجاورة لتُربتها عند قبر معروف ، وله تصانيف وجَدَل ، خرجَ حاجًا وعادَ إلى الكُوفة وهو مريض فتُوفي بها ودُفن بمشهد أمير المؤمنين »[٢] ، وذكر مثل ذلك الذهبي في « تاريخ الإسلام »[٣] وغيره .

وولده الذي ذكر ابن الدُّبيثي وغيره أنه أعاد له هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي علي التُّوقاني (٥٤٩ ـ ٦٣٧ هـ) سمع ببغداد من فخر النّساء

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) الذيل على الروضتين ١٠ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٩٨٨ .

شُهدة بنت أحمد ابن الإبري وأبي المعالي عبد المنعم بن عبد الله الفُرَاوي وأبي القاسم عبد الرحيم بن إسماعيل الصُّوفي وجماعة سواهم ، وقد رحل من بغداد إلى مصر وسكن بالقَرَافة بالمدرسة المُجاورة لضريح الإمام الشافعي ، وحدَّث بمصرَ وسمع منه بها عالمها ومحدثها زكي الدين عبد العظيم المنذري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ وجمال الدين المحمودي المعروف بابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠ هـ وغيرُهما ، وتوفي بها في سَحَر السادس من شهر ربيع الآخر[(١)] .

وحينما توفي فخر الدين النُّوقاني سنة ٥٩٢ هـ كما ذكرنا ولي التدريس بها الفقيه أبو الحسن عليّ بن عليّ بن سعادة بن الجُنَيْس الفارقي ولم يزل بها إلى أن مات في ليلة الاثنين يوم عرفة سنة ٦٠٢ هـ . وقد ذكر ابن الدبيثي[(٢)] والمنذري[(٣)] وابن الساعي[(٤)] والذهبي[(٥)] والسبكي[(٦)] والصفدي[(٧)] وغيرهم[(٨)] أنه ولد بمَيَّافارقين وسمع بها الحديث وقدم بغداد وصحب الشيخ أبا النَّجيب السُّهروردي وتفقه بالنظامية ثم صار معيدًا بها ثم ناب في

---

(١) تكملة المنذري ٣ / الترجمة ٢٩٢٣ ، وتكملة ابن الصابوني ٣٥٣ – ٣٥٤ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام : ٤ / ٤٧٣ – ٤٧٤ .

(٣) التكملة : ٢ / الترجمة ٩٣٧ .

(٤) الجامع المختصر : ٩ / ١٨٨ – ١٨٩ .

(٥) تاريخ الإسلام : ١٣ / ٦٦ .

(٦) طبقات الشافعية : ٨ / ٢٩٥ .

(٧) الوافي : ٢١ / ٣٣٣ .

(٨) العيني : عقد الجمان ١٧ / الورقة ٢٩ .

التدريس بها بعد وفاة مدرسها الشيخ الفقيه أبي طالب المبارك بن المبارك الكرخي ، فبقي بها إلى أن وَلِيَ تدريس هذه المدرسة فدرَّس بها سنة ٥٩٢ هـ وخُلِعَ عليه وأعطي طرحة .

ولا ندري من دَرَّس بها بعده ولكننا نعلم أنَّ أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن جامع بن سعيد الواسطي البَرْجوني الشافعي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ . قد ولي التدريس بها في مفتتح سنة ٦٠٤ هـ قال تاج الدين ابن السَّاعي في حوادث السنة المذكورة : « في يوم السبت غُرة المُحرم دَرَّس الكمال عبد الرحمن بن محمد ابن المُعلم البَرْجوني بالمدرسة المجاورة لتُربة منشئتها والدة الإمام الناصر لدين الله »[١] ، وقال ابن الفُوطي : « ودَرَّس بمدرسة الأصحاب المجاورة لتربة أم الناصر في المحرم سنة أربع وست مئة »[٢] ، وقال المنذري في ترجمته من « التكملة » : « ودَرَّس بمدرسة والدة الخليفة الإمام الناصر لدين الله قَدَّس الله روحهما »[٣] . وقد حفظت لنا المصادر جملةً من أسماء مُدرسيها مما يدل على أهميتها ومنزلتها في العصور التالية ، فقد درس بها مُديدةً قاضي القضاة محي الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن فَضْلان الذي أصبح فيما بعد أول مدرسي الفقه الشافعي في المدرسة المُستنصرية[٤] ، وفخر الدين أبو الفضل محمد بن محمد المراغي المعروف

---

(١) الجامع المختصر : ٩ / ٢١٧ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٩٨ من الكاف .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ٢٣٦٢ .

(٤) تنظر ترجمته في تاريخ علماء المستنصرية لأستاذنا الدكتور ناجي معروف ، وراجع كتاب الحوادث : ٩١ .

بالحيوان المتوفى سنة ٦٥٣ هـ[١] ، والقاضي عز الدين أبو العز محمد بن جعفر البَصْري المتوفى سنة ٦٧٢ هـ[٢] وولده نجم الدين محمد بن أبي العز البَصْري الذي وليها بعد وفاة والده[٣] ، وجمال الدين عبد الله بن محمد بن علي بن حماد بن ثابت الواسطي المعروف بابن العاقولي شيخ المستنصرية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ[٤] .

وممن أعاد للمدرسين في هذه المدرسة معين الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن محمد الزَّبيدي البغدادي الحَرِيمي الظَّاهري الفَرَضي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ[٥] ، وموفق الدين أبو الحسن علي بن الخطاب بن مُقَلَّد الواسطي المُحَدِّثي المقرئ معيد المدرسة الفخرية المتوفى سنة ٦٢٩ هـ[٦] ومحب الدين أبو عبد الله محمد بن شريف المتوفى سنة ٦٣٧ هـ[٧] .

٢٩ ـ مدرسة ابن العطار : قبل سنة ٥٩٥ هـ ـ ١١٩٩ م

كانت هذه المدرسة بدرب القَيَّار (تحت التكية) أنشأها أبو القاسم نصر بن منصور بن الحُسين بن أحمد ابن العطار الحَرَّاني الأصل البغدادي الدار المتوفى في ذي القعدة سنة ٥٩٥ هـ ، قال المنذري في ترجمة

---

(١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٤٢٩ .

(٢) الحوادث : ٤١٣ .

(٣) الحوادث : ٤١٢ .

(٤) الحوادث : ٤٢٢ ، ومنتخب المختار ٧٤ .

(٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١٤٥٧ من الميم .

(٦) المصدر نفسه ٥ / الترجمة ٣٠٠٥ من الميم .

(٧) المصدر نفسه ٥ / الترجمة ٢٠٤ من الميم .

حفيده وسميه أبي القاسم نصر بن منصور بن نَصِير بن مَنْصور المتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٩ هـ » وجده أبو القاسم نَصْر ولد بحران وقَدِمَ بغداد وسكنها إلى أن مات بها وكان شيخ التجار بها ، حفظ القرآن الكريم في حال كبره وسمع شيئًا من الحديث من أقرانه وكان كثير التلاوة للقرآن الكريم وله بر وصلة »(١) ، وقال تاج الدين ابن الساعي في وفيات سنة ٥٩٥ هـ : « وبَنَى مدرسة للفقهاء الحنابلة بدرب القيار »(٢) . وليس لدينا من الأخبار ما يشير إليها غير إشارة إنشائها ، فلم نقف على ذكر أحدٍ من المدرسين أو المتفقهة بها .

٣٠ ـ المدرسة الشاطئية بباب الشعير : قبل سنة ٥٩٨ هـ ـ ١٢٠١م

أنشأتها الجهة الصالحة بنفشا بنت عبد الله عتيقة الخليفة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م ، قال ابن الدبيثي في ترجمة الركن عبد السلام ابن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي ثم البغدادي المولد والدار : « ودّرس بعد وفاة أبيه بمدرسة جده بباب الأزج ، وبالمدرسة الشاطئية التي وقفتها بنفشا بدرب الشعير »(٣) .

ودرب الشعير أو باب الشعير محلة معروفة بالجانب الغربي من بغداد ، ذكر ابن الدبيثي أنها بين محلتي باب البصرة والنصرية(٤) ، وقال ياقوت : « باب الشعير محلة فوق مدينة المنصور ، قالوا : كانت ترفأ إليها سفن الموصل والبصرة ، والمحلة التي ببغداد اليوم ، وتعرف بباب الشعير ، هي بعيدة من

(١) المنذري : التكملة : ٢ / الترجمة ١٢٥١ .
(٢) ابن الساعي : الجامع المختصر : ٩ / ١٤ .
(٣) تاريخه : ٤ / ١١٩ .
(٤) تاريخه ٢ / ٢٠٤ و ٣ / ٣٨ ، ٦٠ ، ٢٠٧ ، ٣٧٧ .

دجلة ، بينها وبين دجلة خراب كثير والحريم وسوق المارستان »[١] . والظاهر أنها أنشئت بعد دخول الرحالة ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ هـ بدليل عدم ذكره لأي مدرسة في الجانب الغربي من بغداد[٢] .

وممن دَرَّس فيها أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي الأصل ثم البغدادي المولد والدار الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ ، قال صاحب الكتاب المسمى بالحوادث في ترجمته : « ودَرّس في مدرسة جده بباب الأزج ، والمدرسة الشاطئية بباب الشعير »[٣] . وقال ابن الفوطي : « ودرّس بمدرسة جده وبالمدرسة الشاطئية »[٤] وتوهم شيخنا العلامة مصطفى جواد فظنها هي المدرسة التي أنشأتها بنفشا بباب الأزج ، بالجانب الشرقي من بغداد[٥] .

٣١ ـ المدرسة الأسباباذية : قبل سنة ٦٠٤ هـ ـ ١٢٠٧ م

هكذا وجدت اسمها مجوّد التقييد والضَّبط في النُّسخة الخطية من تاريخ ابن الدُّبيثي المحفوظة في مكتبة الشَّهيد علي باشا بإستانبول وهي نسخة متقنة نفيسة كتبت في حياة مؤلف الكتاب[٦] . وجاء اسمها في المطبوع من « الجامع المختصر » لابن الساعي (الأسبابذية)[٧] ، وقيدها الذهبي في مختصره لتاريخ ابن

(١) معجم البلدان : ١ / ٣٠٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ١٨٣ .

(٣) الحوادث : ١١٥ – ١١٦ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٩٣ .

(٥) ينظر تعليقه على المصدر السابق .

(٦) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ١٧١ .

(٧) الجامع المختصر ٩/ ٢١٩ .

الدبيثي (الأصفهبذية)[١] مع أن معتمده تاريخ ابن الدبيثي . وسماها صاحب الكتاب المسمى بالحوادث : الأسبهبذية[٢] ، والعرب تقلب الباء الفارسية إلى باء موحدة أو فاء ، وقال العلامة الفيروزآبادي : « والأصبهبذية : نوع من دراهم العراق ، ومدرسة ببغداد بين الدربين »[٣] . وآثرنا إثبات ما في تاريخ ابن الدبيثي مع علمنا بجواز الاختلاف في تلفظ الأسماء غير العربية . وقال شيخنا علامة العراق الدكتور مصطفى جواد : « لعلها منسوبة إلى الأصبهبذ صباوة بن خمارتكين المذكور في الكامل غير مرة في حوادث سنة ٤٩٤ هـ وغيرها »[٤] .

وليس لدينا من أخبار هذه المدرسة غير أخبار مُدرسين دَرَّسا بها ، أولهما : العالم الفقيه الشافعي عماد الدين أبو بكر محمد بن يحيى السلامي المعروف بابن الحُبَيْر (٥٥٩ ـ ٦٣٩ هـ) دَرَّس بها سنة ٦٠٤ هـ ، قال ابن الدُّبيثي : « محمد بن يحيى بن المظفر بن عليّ بن نُعيم ، أبو بكر ابن شَيْخِنا أبي زكريا يُعرف بابن الحُبَيْر . تفقه مدةً على مذاهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، وتكلَّم في مسائل الخلاف وناظرَ ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه ، ودَرَّس بالمدرسة المعروفة بالإسباباذية بين الدَّرْبين على مذهب الشَّافعي ، وخرجَ إلى الحج متوليًا كُسوة البَيْت الشريف والصَّدَقات بالحرمين الشريفين . وسمع الحديث من جماعة منهم : الكاتبة فخر النِّساء شُهْدَة بنت أحمد الإبري ، وأبي الفَتْح نصر بن فِتْيان ابن المَنِّي وغيرهما ، وحَدَّث عنهم . مولده في محرم سنة تسع وخمسين

(١) المختصر المحتاج إليه ١ / ١٦٢ .

(٢) الحوادث : ١٨ وتعليقنا عليه .

(٣) القاموس المحيط ، فصل الصاد من حرف الذال المعجمة (أصبهان) .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ٤ / ٢ / ٨٥٥ .

وخمس مئة ، سمعت ذلك منه »[1] وقد تأخرت وفاته إلى ما بعد وفاة ابن الدُّبيثي بسنتين ، قال زكي الدين المُنذري في وفيات سنة ٦٣٩ هـ من « التكملة » : « وفي السابع من شَوَّال تُوفي القاضي الأجل أبو بكر محمد ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن مظفّر بن علي بن نُعيم البغدادي الشافعي المعروف بابن الحُبَيْر ببغداد وصُلِّي عليه بجامع القصر ، ودُفن بمقبرة الإمام أحمد »[2] . وقال تاج الدين ابن الساعي في حوادث سنة ٦٠٤ هـ : « وفي يوم السبت ثامن جُمادي الأولى انتقل شيخُنا عماد الدين أبو بكر محمد بن يحيى السَّلامي المعروف بابن الحُبَيْر عن مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه وكان من أعيان الفقهاء علمًا ودينًا وصلاحًا وعَدَالةً وورعًا ، وسُلِّمت إليه المدرسة الأسبابذية بين الدَّرْبين تدريسًا ونظرًا في وقفها ، فدَرَّس بها يوم الخميس ثالث عشره ، وحضر عنده جماعةٌ من المدرسين والفقهاء »[3] .

أما الثاني : فهو الشهيد العالم صدر الدين أبو معشر الهَمَذاني ، وهو ممن أعدمهم الطاغية هولاكو عند استيلائه على بغداد وهو في الثمانين من عمره[4] .

٣٢ ـ المدرسة الشَّرَابية : ٦٢٨ هـ ـ ١٢٣١ م

وتُسَمَّى الشَّرَفية أو الإقبالية نسبة إلى مُنْشِئها شرف الدين إقبال الشَّرابي أحد قادة الجيوش العباسية الشُّجعان في عهدي المستنصر والمستعصم والمتوفى سنة ٦٥٣ هـ . ولعلها هي البناية المعروفة اليوم بالقصر العباسي ضمن بناية

(١) تاريخه : ٢ / ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) التكملة : ٣ / الترجمة ٣٠٤٥ .

(٣) الجامع المختصر : ٩ / ٢١٩ .

(٤) العسجد المسبوك للغساني : ٦٣٨ ويعدّل تعليقنا على كتاب الحوادث ١٨ هامش ٣ .

وزارة الدفاع القديمة على ما أثبته العلامة الأستاذ الدكتور ناجي معروف ـ يرحمه الله ـ بالأدلة المستندة إلى دراسة فنية وخططية مستفيضة[١] .

وقد تَوَلّى الإشراف على بنائها شمس الدين أبو الأزهر أحمد ابن الناقد وكيل الخليفة المُسْتنصر بالله ، وغرم عليها الشَّرابي أموالاً طائلة ، وأوقف عليها الوقوف الدّارة ، وجعل النظر فيها وفي أوقافها إلى وكيل الخليفة ابن النّاقد ثم إلى من يلي وكالة الخلافة من بعده . وكانت مخصصة لاستيعاب خمسة وعشرين طالبًا من طلبة الفقه الشافعي ، قد رُتِّبت لهم مستلزمات الدِّراسة ، والسَّكن ، والطعام ، والرَّواتب ، وضَمّت مكتبةً يديرها خازن مسئول عنها .

افتُتحت هذه المدرسة في آخر شوال سنة ٦٢٨ هـ ، ورُتِّب بها الشيخ تاج الدين محمد بن الحسن الأرموي مدرسًا وخُلِعَ عليه وعلى المعيدين والطلبة وجميع الحاشية ومن تولى عِمَارتها ، وحضرَ حفل الافتتاح جميع المدرسين والفقهاء على اختلاف المذاهب وقاضي القضاة عبد الرحمن بن مُقْبِل فجلس في صَدْر الإيوان وجلسَ في طرفي الإيوان محيي الدين محمد بن فَضْلان وعماد الدين أبو صالح نَصْر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي وكان كلاهما قاضي قضاة ، وعُمِلَ عند افتتاحها أنواع الأطعمة والحَلْواء ما تعبّى في صحنها قبابًا ، وحُمِلَ من ذلك إلى جميع المدارس والأربطة ، وقُرِئت الختمة ، وتكلَّم الشيخ محمد الواعظ ، ثم جلسَ المدرِّس بعده وافتتح التدريس بها ، فذكر أربعة دروس أعربَ فيها عن غزارة فَضْله وتوسّع علمه[٢] .

---

(١) يراجع كتابه النفيس : المدارس الشرابية ، بغداد ١٩٦٥ .

(٢) ينظر الكتاب المسمى بالحوادث ٤٥ - ٤٦ .

وكان التاج الأرموي مدرسها عالمًا فاضلاً قرأ في شبيبته على فخر الدين الرّازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وصحبه ، وبرع في العقليات حتى كان سلطان المناظرين في عَصْره ، وتوفي سنة ٦٥٣ هـ[١] .

والظاهر أن الدراسة استمرت فيها في عهد المغول ، فقد ذُكر أنّ القاضي نجم الدين عبد الله بن كامل بن محمود القوساني كان مدرسًا بها سنة ٦٧٦ هـ ، كما ذكر ابن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ أنه سمع على خازن كتبها مجد الدين أبي الحَسَن عليّ بن أحمد بن هبة الله المعروف بابن الماوردي الواسطي الفقيه[٢] .

٣٣ ـ المدرسة المجاهدية : ٦٣٧ هـ ـ ١٢٣٩ ـ ١٢٤٠ م

وهي آخر مدرسة أحادية أنشئت ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، مَنْسوبة إلى منشئها مُجاهد الدين أيبك بن عبد الله المُسْتَنصري أمير الأمراء المعروف بالدُّويدار الصغير المقتول في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م أعدمه الطاغية هولاكو وقد جاوز عمره الثمانين سنة وأنفذ رأسه إلى المَوْصل[٣] .

شيد مجاهد الدين مدرسته سنة ٦٣٧ هـ في دار الخلافة العباسية تجاه دار الدويدار الكبير (في محلة المربعة) وأوقفها على الحنابلة ، واستمرت عامرة حافلة بالطلبة إلى أواخر القرن الثامن الهجري فقد وصفها ابن رافع السلامي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ بأنها أكبر مدارس بغداد[٤] .

---

(١) تاريخ الإسلام : للذهبي ١٤ / ٧٤١ ، والكتاب المسمى بالحوادث ٣٢٦ ، والوافي للصفدي ١ / ٢٣٥ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٦٧ من الميم .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام : ١٤ / ٨٣٥ .

(٤) منتخب المختار : ١٢٥ ، وكتاب الحوادث ١٥٧ .

وكانت في هذه المدرسة خزانة كتب عامرة ازداد عمارها بوقف عدد من العُلماء كتبهم عليها ، فقد ذكر ابن الفُوطي في ترجمة كمال الدين منصور بن أحمد الدُّوري أنه كان من أرباب البيوتات القديمة خرج بعد الوقعة سنة ٦٥٦هـ وسكنَ الشام وأنفذَ أموالا اشترى بها الأسرى من المَغْول وكان كثير الخيرات والمبرات وقفَ كتبَهُ على المدرسة المُجاهدية ... سنة ثمان وخمسين وست مئة(١) .

كما أوقف العالم الكبير الأديب الشهير صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ جميع خزانته من كتب وما ألفه هو على خزانة هذه المدرسة(٢) .

وممن دَرَّس في هذه المدرسة الشيخ كمال الدين عليّ بن محمد بن وَضَّاح الشَّهْراباني المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، ولي التدريس بها بعد افتتاح المدارس بعد واقعة بغداد واستمر بها إلى حين وفاته(٣) ، وركن الدين شافع بن عُمر بن إسماعيل الجيلي ثم البغدادي الفقيه الأصولي المتوفى سنة ٧٤١ هـ(٤) ، وشرف الدين أبو محمد عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن إسماعيل الزريراني البَغْدادي المتوفى سنة ٧٤١ هـ(٥) ، وشمس الدين محمد بن أحمد السقاء تلميذ صفي الدين عبد المؤمن

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٥٩٦ من الكاف .
(٢) منتخب المختار : ١٢٢ .
(٣) ابن رجب : الذيل : ٢ / ٢٨٣ .
(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٥ .
(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٦ .

المتوفى سنة ٧٦٥ هـ[١] ، وغيرهم .

٣٤ ـ المدرسة المستنصرية : ٦٣١ هـ ـ ١٢٣٤ م[٢]

منسوبة إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي الذي ولي الخلافة من سنة ٦٢٣ هـ إلى سنة ٦٤٠ هـ ، وهي أول مدرسة في العالم الإسلامي عُنيت بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، وأفخم مدارس العراق على الإطلاق ، وأكثرها شُهْرةً ، وأعظمها وقفًا ، مازال بناؤها قائمًا يحكي عظمة الحضارة ورقيها .

شرعَ المُسْتنصر بالله العباسي ببنائها سنة ٦٢٥ هـ على شط دجلة مما يلي دار الخلافة ، وحَشَد لها البَنَّائين والفنيين فدامَ العمل فيها بجد ونشاط قرابة ست سنوات بلغت النفقة عليها خلالها سبع مئة ألف دينار ، وهو مبلغ جد ضخم إذا عرفنا القوة الشِّرائية للدينار الذهب آنذاك بحيث كان أعلى موظف فيها يتقاضى اثني عشر دينارًا فقط .

افتتحت المدرسة في اليوم الخامس من شهر رَجَب سنة ٦٣١ هـ / ٦ نيسان ١٢٣٤م باحتفال كبير حضره كبار رجال الدولة والعلماء والطلبة وولمت الولائم وكان احتفالاً مهيبًا .

وقد نظم الخليفة المستنصر هذه المدرسة تنظيمًا لم يُسْبق إليه من حيث الإدارة والتدريس والطلبة وشؤونهم ، فجعل إدارتها بيد (ناظر) أو (وال) يُختار من بين كبار موظفي الدَّولة ، يساعدُه مُشرف وكاتب ، وفيها معمارية ،

---

(١) ابن رجب : الذيل : ٢ / ٤٤٦ .

(٢) ينظر عنها الكتاب النفيس الذي ألفه العلامة الدكتور ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، في مجلدين ، والمطبوع عدة طبعات .

وعَشَرة فراشين ، وثلاثة بوابين ، وحَمَّامي ، ومُزَيّن ، وقيّم ، وطباخ ومساعد له ، ومدير مخزن ، ومزملاتي ، ونَفَّاط ، وعدد من الموظفين الآخرين .

ولما كانت المستنصرية قد أنشئت لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة فقد اشترطَ المستنصر أن يكون لكل طائفة من الطوائف الأربع مدرس (أستاذ كرسي الفقه) ، وأن يكون لكل مدرس أربعة معيدين . وكان الخليفة هو الذي يعين المدرسين بتوقيع (إرادة ملكية أو مرسوم جمهوري) يصدر عنه ، ثم يُخْلَع عليه بدار الوزارة خلعة التَّدْريس ويسير في موكب مهيب فيه الولاة والحجاب والصُّدُور وأرباب المَنَاصب احترامًا له واحتفاءًا به ، ويحضر الأئمة والفُقهاء محاضرته الأولى ، وغالبًا ما يبقى في منصبه مدى الحياة .

أما طلبة الفقه (الفُقهاء) فقد كانوا (٢٤٨) طالبًا ، اثنان وستون طالبًا لكل طائفة يَتَخيّرون من بين النابهين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، أما مدة دراستهم فيظهر أنها بين ٤ ـ ٦ سنوات مع أنه ليس لدينا معلومات دقيقة عن مدة الدراسة ، لكن الدِّراسة في المساجد والمدارس الأحادية كانت بحدود أربع سنوات ، وقَدِمَ منصور بن سَليم الاسكندراني إلى بغداد ، ودَرس بالمُستنصرية بين ٦٣٣ ـ ٦٣٩ هـ[1] .

وألحق المُسْتَنصر بمدرسته دارًا للقرآن الكريم اعتنى ببنائها فكانت إحدى المعالم الحضارية المعمارية ببغداد آنذاك ، وطلب أن يكون فيها ثلاثون صبيًا أيتامًا يتلقنون القُرآن على شيخ مقرئ متقن صالح يعاونه معيدٌ يعيد للطلبة ما يلقيه عليهم الشَّيخ ويحفِّظهم التلاقين .

---

(١) ينظر كتابه الذي ذيل به على إكمال الإكمال لابن نقطة .

كما كان فيها شيخ يروي الحديث . وقد طَلَب المُستنصر أن يتولى مشيخة الحديث فيها شيخ عالي الإسناد يعاونه قارئ الحديث ، وينتظم فيها عَشَرة من الطلبة يشتغلون بعلم الحديث النَّبوي . وكانت رواية الحديث تجرى ثلاثة أيام في الأسبوع هي : السبت والاثنين والخميس .

واشترط المستنصر أن يكون بمدرسته نحوي يدرِّس العربية والظاهر أن له معيدًا أسوة بغيره . ولما لم تكن للعربية بناية خاصة في هذه المدرسة فالظاهر أنَّ دراسة اللغة كانت تعقد في رواقها أي في صَحْنها وأواوينها ، فقد عقد ابن الصَّيْقل الجَزَري المتوفى سنة ٦٧٦ هـ عَشَرة مجالس برواق المستنصرية لمدة شهرين حضرها مئة وستون سامعًا .

وكان علم الطب من العلوم التي تُدَرَّس بالمستنصرية إذ اشترط المستنصر أن يكون في مدرسته طبيبٌ حاذق مُسلم وأن يكون بها عَشَرة طلبة من المُسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب . وكان من واجب هذا الطبيب أيضًا معالجة المرضى من رجال الإدارة والمدرسين والطلبة في هذه المؤسسة العلمية ، وأن يُعْطَى المريض ما يُوصف له من الأدوية والأشربة والكحال السائلة والسكر والقَرَاريج وغير ذلك . وقد ذكر ابن الفِيَري وغيرُه أنه كان بالمستنصرية مخزن فيه أنواع الأشربة والأدوية والعقاقير أي أنها تضم صيدلية أو مذخرًا طبيًا . والظاهر أنَّ الخليفة شعر بضرورة وجود بناية خاصة بالطب لهذه المدرسة وذلك لتسيهل مراجعة المَرْضَى من جهة ومعالجة المرضى من غير المستنصرية من جهة ثانية لذلك قام بإنشاء بناية خاصة بها تقع تجاه المدرسة أي مقابل باب المدرسة الرئيسي ، وافتتحت سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ ، قال صاحب العسجد المسبوك : « وفي ثاني جُمادي الآخرة كَمُلت عمارة إيوان الساعات

الذي أمر الخليفة بإنشائه قبالة المدْرسة المُستنصرية وعمل تحته صُفَّة فاخرة فجلس عليها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب وتقصده المَرْضَى فيداويهم »[١] . وذكر ابن العبري أنَّ طبيب المستنصرية كان يتردد إلى مرضاها في بكرة كل يوم يتفقدهم .

وعُني المستنصر عناية بالغة بمكتبة هذه المَدْرسة ، فقد ذكر صاحب الكتاب المسمى بالحوادث أنه نقل إليها يوم افتتاحها « من الرَّبعات الشريفة والكُتُب النفيسة المحتوية على العلوم الدِّينية والأَدبية ما حمله مئة وستون حمالاً وجعلت في خزانة الكُتُب »[٢] ، سوى ما نُقِلَ إليها فيما بعد[٣] . وقد ذكر ابن الفوطي ـ وقد تولى إدارتها مدة ـ أنه لم يوجد مثلها في العالم . وقد قَرَنها الإمام الذَّهبي المؤرخ بخزانة الرَّصد التي أُنشئت فيما بعد بمراغة فقال : « وليس في البلاد أكثر من هتين الخزانتين » . ولابد أن المكتبة ظلت تُغْنَى بالكتب بعد تأسيس المدرسة فَضْلا عن قيام بعض العُلماء بوقف كتبهم عليها . ورتبت الكتب حسب موضوعاتها ليسهل تناولها والإفادة منها .

وقد اشترط المستنصر أن يكون فيها خازن للخزانة (أمين مكتبة) ، يعاونه مُشْرف ومناول للكتب ، وأن تُجعل الخزانة برسم من يطالع ويستنسخ من الطلبة ، ووفر الورق والأَقلام لمن يريد النسخ .

وكانت المدرسة المستنصرية داخلية توفر لرجال إدارتها ومدرسيها وطلبتها المأكل والمسكن فضلاً عن رواتب شهرية جارية ، فقد اشتملت البناية على

---

(١) العسجد المسبوك : ٤٧١ ، والكتاب المسمى بالحوادث : ١١١ .

(٢) الحوادث : ٨١ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٨ .

حُجر وغُرف لسكنى الطلبة ، وكانت الأطعمة توزع يوميًا مطبوخة في مطبخها على طلابها الذين أثبتوا فيها وهم : (٢٤٨) طالبا في مدرسة الفقه ، وثلاثون في دار القُرآن ، وعَشَرة في دار الحديث ، وعَشَرة في مدرسة الطب ، إضافة إلى الأخباز والحَلْوَى والفاكهة وهُيئت لهم الحُصُر والسراج والزيت والفرش والصابون ، كما وهيئت الأحبار والورق والأقلام للاستنساخ وحمام حار في الشتاء وماء بارد للشرب صيفًا ، فضلاً عن المعالجة الطبية المجانية . وكان يوزع على رجال الإدارة والتدريس يوميًا كميات كبيرة من الخبز واللّحْم والخضر والحَطَب تكفي لهم ولعيالهم وضيوفهم .

وكان الموظفون والتدريسيون فوق كل ذلك يتقاضون مرتبات شهرية نقدية من الدّنانير الذهبية ، فكانت رواتب الناظر ومدرسي الفقه (١٢) دينارًا ، وكان مُشرف النّاظر وكاتبه يتقاضيان سبعة دنانير ، وأمين المكتبة عَشَرة دنانير ، والمُشْرف على المكتبة ثلاثة دنانير ، والمناول دينارين . أما شيوخ القرآن والحديث والعربية والطب فكان راتب كل منهم ثلاثة دنانير ، وكان معيد الحديث يتقاضي دينارين وعَشَرة قراريط ، ومُعيد شيخ دار القُرآن دينارًا وعشرين قيراطًا ، بينما طالب الفقه يتقاضي دينارين ، ويتقاضي طلبة القُرآن والحديث والطب ثلاثة عشر قيراطا وحبّة . وهذه الرواتب جيدة إذا عرفنا القوة الشرائية للدينار يومئذ .

ومن أجل إدامة هذه المؤسسة الرّاقية فقد أُوقف المستنصر على مدرسته وقفًا جليلاً حصل المؤرخ ابن السّاعي ـ أمين مكتبتها ـ على نُسْخة منه فدونه في خَمْسة كراريس ، وقد اطلع عليه المؤرخ شمس الدين الذهبي ونقل مختصره في كتابه « تاريخ الإسلام » . وقال : « ثم رأيتُ نسخة كتاب وقفها

في خمسة كراريس الوَقْفُ عليها عدة رباع وحوانيت ببغداد وعدة قُرى كبار وصغار ما قيمته تسع مئة ألف دينار فيما يخال إليَّ ، ولا أُعلم وقفًا في الدُّنيا يقارب وقفها أصلا سوى أوقاف جامع دمشق وقد يكون وقفها أوسع »[١] ، وقال بعد أن سرد أوقافها : « المرتزقة من أوقاف هذه المدرسة على ما بلغني نحو من خمس مئة نَفَر ، المدرسون فمن دونهم ... فكذا فليكن البِر وإلا فلا وحدثني الثِّقة أن ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين نَيِّفًا وسبعين ألف مثقال ذهبًا »[٢] . هذا وقد عاش الذهبي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري وشاهد واطلع على أوقاف عَشَرات المدارس قبلها .

وكان المستوى العلمي للشيوخ والمدرسين والمُعيدين والطلبة في المدرسة المستصرية أعلى من مستويات المدارس المعاصرة أو التي أُنشئت قبلها تدل على ذلك الأُمور الآتية :

١ ـ كان المدرسون يتخيَّرون من بين كبار المدرسين في العراق والشام ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية ممن انتهت إليهم رئاسة العلم . وقد اضطر القَوَمة على هذه المدرسة في بعض الأحيان على استقدام المدرسين من خارج العراق ، فقد استدعَى المستنصر الشيخ أحمد بن يوسف الحَلَبي لتدريس الحنفية بها سنة ٦٣٣ هـ كما استقدم في السنة نَفْسها الشيخ سراج الدين عبد الله بن عبد الرحمن الشارمسَاحي من الإسكندرية لتدريس المالكية وصحب معه جماعة من الطلبة سجلوا في المدرسة وظل فيها إلى حين وفاته سنة ٦٦٩ هـ .

---

(١) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٨ - ٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٤ / ١٠ .

٢ ـ إنَّ المعيدين فيها كانوا يُنْقلون أحيانا إلى مدرسين في المدارس الأخرى مثل شافع الجيلي والمُحب البغدادي ومجد الدين ابن الساعاتي وغيرهم ، كما أنَّ المدرسين في غيرها لا يُنقلون إلا إلى الإعادة فيها .

٣ ـ لا يقبل أي طالب للدراسة فيها ما لم يكن من النابهين الذين أصبحت لهم شُهرة تؤهلهم للدراسة فيها .

٤ ـ كانت نسبة عدد المدرسين والمعيدين إلى عدد الطلاب نسبة ممتازة تضاهي الجامعات الراقية في العصر الحديث وكان عدد طلبة الطب والحديث عَشَرة طلاب فقط .

٥ ـ تَوَفّر مستلزمات التعليم العالي والبحث العلمي الذي يتمثل في وجود مكتبة ضخمة تحوي آلاف المجلدات تساعد الأساتذة والطلبة على الدِّراسة والبحث والتأليف ، كما أنَّ معالجة شيخ الطب للمرضى يُعد مجالاً تطبيقيًا حيويًا لدراسة الطب ، فضلا عن توفير المتطلبات المادية التي تجعل الأُستاذ والطالب في مأمن من المشاكل التي تعترض سبيل دراستهم .

إن دراسة الفقه على المذاهب الأربعة بأماكن مستقلة داخل المدرسة المُستَنصرية ، والعناية بدراسة عُلوم القرآن ، والسنة النبوية ، وعلوم العربية ، والطب ، والفرائض في مؤسسة واحدة يشير إلى تطوير كبير في نظام التعليم ، ويحق للباحث عندئذ أن يشبه هذه المؤسسة بالجامعة ، فكان العراق سباقًا إلى هذا الأمر ، فشرعَ الناس بتقليده والسَّير على نهجه في أصقاع العالم الإسلامي فيما بعد فبنوا المدارس على صفة المُستنصرية .

ويرى الأستاذ جورج مقدسي أنَّ أنشاء المدرسة المُستنصرية هو إتمام لدورة التطوير في مؤسسات العلم ببغداد ، فالجامع مؤسسة عامة يضم حلقات

تمثل جميع المذاهب ، والمسجد ثم المدرسة كلاهما خاصان مختصان بمذهب واحد وأخيرًا المدرسة التي أنشأها الخليفة أصبحت مرة أخرى عامة تفيد من خصائص المدرسة الخاصة . ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الجامع كان يقرأ فيه القرآن بالروايات ويروى الحديث ويدرس النحو والأدب والطب[١] .

٣٥ ـ المدرسة البَشيرية : ٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥ م

تقع هذه المدرسة في الجانب الغربي من بغداد قرب مشهد الشيخ معروف الكَرْخي وهي مَنسوبة إلى منشئتها حظية الخليفة المستعصم وزوجته وأم ولده الأمير أبي نصر محمد المعروفة بباب بَشِير المتوفاة سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م[٢] .

بدأ العمل في إنشاء هذه المدرسة سنة ٦٤٩ هـ[٣] واستمر أربع سنوات مما يدل على ضخامة بنايتها وفخامتها ، وجعلتها وقفًا على المذاهب الأربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية ، ووقفت عليها أوقافًا كثيرة قبل الانتهاء من إنشائها . وكان افتتاحها يوم الخميس الثالث عشر من جمادي الآخرة سنة ٦٥٣ هـ / ٢٠ تموز ١٢٥٥ م بعد وفاة صاحبة المدرسة بسنة ، لذلك حضر الخليفة بنفسه حفل الافتتاح وحضر أولادُه فجلسوا في وسطها كما حضر الوزير وأرباب المناصب ومشايخ الرُبط والمدرسون ، وخُلِعَ على المدرسين

(١) ينظر كتابه عن المدارس باللغة الإنكليزية .

(٢) كتاب الحوادث : ٣١٩ .

(٣) كتاب الحوادث : ٣٠٣ .

وعلى الناظر بها ونواب العمارة والفراشين وخدم القبة ، وأُنشدت الأشعار[١] ، وعملت وليمة عظيمة وصفها صاحب « العسجد المسبوك » نقلا من تاريخ تاج الدين ابن الساعي فقال : « وعملت بها دعوة جميلة كان مبلغ الدقيق الذي عمل منه الخشكنان والسنبوسج ثلاثة أكرار ، ومبلغ ما ابتيع من السُّكّر لأجل الحلوى سبعة وعشرون ألف رطل والى غير ذلك »[٢] .

وقد أُلحقت بالمدرسة المذكورة خزانة كُتُب فخمة نَفيسة وصفها صاحب كتاب « العسجد المسبوك » فقال : « ونُقِل إليها من الكُتُب ما حُمِل على ستة وثلاثين صندوقًا بالخطوط المنسوبة والنسخ المضبوطة منها ما هو بخط ابن البَوّاب وبخط ابن (مقلة) سبعون قطعة ، ومصحف كريم بخط عُثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومُصحف بخط زين العابدين عليّ بن الحُسين عليه السلام ، ومصحف بخط ابن البَوّاب إلى غير ذلك »[٣] ، وقال ابن الفوطي في ترجمة فخر الدين أبي إسحاق إبراهيم بن حَسَن بن أيدغدي الكاتب خازن الكُتُب بالمدرسة البَشيرية : « الشيخ الأديب الكاتب صاحب الأخلاق الحميدة والآداب الغزيرة كتب الكثير بخطه الصحيح ، وهو الذي تولّى كتابة فهرست المَدْرَسة البشيرية على طريقة حَسَنة وذلك في سنة أربع عشرة وسبع مئة »[٤] .

لقد كانت المدرسة البشيرية ثاني مدرسة أُنشئت في العراق على صفة

(١) كتاب الحوادث : ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) العسجد المسبوك : ٦٠٩ .

(٣) العسجد المسبوك : ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ، الترجمتان ١٨٩٩ و ١٩٠٠ .

المَدْرسة المستنصرية بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة إذ كان إنشاء المُسْتَنصرية فاتحة عهد جديد في تنظيم المدارس كما أسلفنا مما جعل الكثيرين من مؤسسي المَدَارس ينشؤون مدارسهم على صفتها ، فقد أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة المدرسة الصَّالحية سنة ٦٤١ هـ على صفة المستنصرية[١] وبذلك تكون البشيرية ثالث مدرسة من هذا النوع في العالم الإسلامي ، وقد استمر التدريس بها قائمًا إلى عصور متأخرة توالى على التدريس فيها علماء فُضَلاء فأصبحت من المدارس البغدادية البارزة .

وكان أول مدرس للفقه الحنبلي فيها هو شرفُ الدين عبد الله ابن محيي الدين يوسف ابن الواعظ المشهور جمال الدين ابن الجوزي ، وكان والده أستاذ دار الخلافة العباسية[٢] (يقابل عندنا : رئيس الديوان الملكي أو رئاسة الجمهورية) وهو ممن أعدمهم الطاغية هولاكو في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ مع والده محيي الدين[٣] . وكان أول المدرسين الحنابلة بها بعد الغزو المغولي هو الشيخ نور الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عُمر البَصْري العَبْدلياني المتوفى سنة ٦٨٤ هـ[٤] . وممن درس لهذه الطائفة فيها : تقي الدين أبو الميامن مظفر بن أبي بكر بن مظفر الجَوْسقي ثم البغدادي المعروف بالحاج المتوفى سنة ٦٨٣ هـ[٥] ، والقاضي جمال الدين أحمد بن حامد المعروف بابن عُصَيَّة

---

(١) خطط المقريزي : ٤ / ٢٠٩ .

(٢) كتاب الحوادث : ٣٢٤ .

(٣) المسجد المسبوك : ٦٣٦ .

(٤) ابن رجب : الذيل ٢ / ٣١٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٣١١ .

المتوفى في حدود سنة ٧٢٠ هـ[١] ، ومحمد بن محمود الجيلي ثم البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ[٢] وجمال الدين يوسف بن عبد المحمود بن عبد السلام ابن البتي البغدادي المقرئ الفقيه الأديب النحوي المتفنن المتوفى سنة ٧٢٦ هـ[٣] ، والعالم الأديب الفقيه صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ صاحب كتاب « مراصد الاطلاع » وغيره من المؤلفات[٤] ، وشرف الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزُّريراني البغدادي المتوفى سنة ٧٤١ هـ[٥] ، والقاضي جمال الدين عبد الصمد بن خليل الحُضري المتوفى سنة ٧٦٥ هـ[٦] . ثم تولى التدريس بها بعده شمس الدين محمد ابن الشيخ أحمد السقاء المتوفى سنة ٧٦٥ هـ أيضًا[٧] . وعرفنا من معيدي الحنابلة : الفقيه نصير الدين أحمد بن عبد السلام البغدادي المتوفى سنة ٧٣٥ هـ[٨] .

أما الأحناف فكان أول مدرس ولي تدريسهم هو نور الدين محمد بن العَرَبي الخُوارزمي[٩] ، ثم فخر الدين أبو بكر عبد الله بن عبد الجليل بن

(١) ابن رجب : الذيل ٢ / ٣٧٤ .
(٢) المصدر نفسه : ٢ / ٣٧٦ .
(٣) المصدر نفسه : ٢ / ٣٧٩ .
(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٠ .
(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٦ .
(٦) المصدر نفسه : ٢ / ٤١٣ .
(٧) المصدر نفسه : ٢ / ٤٤٦ .
(٨) منتخب المختار : ٣١ .
(٩) كتاب الحوادث ٣٢٤ .

عبد الرحمن الرّازي ثم البغدادي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ[١] ، ثم نور الدين عليّ ابن الأطلبي الحنفي الذي وليها بعد فخر الدين عبد الله بن عبد الجليل الطِّهراني الرازي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ[٢] .

وكان أول من تولّى تدريس الشافعية بها أقضى القضاة سراج الدين عُمر بن بركة النَّهرقلي الشافعي[٣] . ومنهم قاضي القضاة ـ فيما بعد ـ محمد بن أبي فراس الهُنايسي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ[٤] . ثم وليها بعده تاج الدين عبد الرحيم بن يونس الموصلي سنة ٦٧١ هـ لكنه توفى في آخر العام[٥] . ومنهم صدر الدين محمد بن محمد بن محمد بن عمر الهرَوي رُتِّب مدرسًا فيها سنة ٦٧٧ هـ وبقي فيها إلى سنة ٦٨٤ حينما عزل عنها وتولاها جمال الدين ابن العاقولي[٦] ، ومجد الدين أبو طاهر عليّ بن محمد بن أحمد بن جعفر الواسطي ثم البغدادي المتوفى سنة ٦٨٣ هـ[٧] ، وجمال الدين عبد الله بن محمد بن علي الواسطي العروف بابن العاقولي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ[٨] ،

---

(١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢١٤٠ .

(٢) الحوادث ٣٩٩ .

(٣) المصدر السابق : ٣٢٤ .

(٤) كتاب الحوادث : ٤٠٦ ، و تاريخ الإسلام : للذهبي ١٥ / ١٨٨ .

(٥) كتاب الحوادث ٤٠٩ ، واليونيني : ذيل مرآة الزمان ٣/ ١٤ ـ ١٥ ، وتاريخ الإسلام ٢٧٧/١٥ .

(٦) كتاب الحوادث ٤٨٣ ، وذكر في موضع آخر أنه توفي سنة ٦٧٧هـ (ص٤٤٢) وفي هذا نظر

(٧) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٨٦ من الميم .

(٨) الحوادث ٤٨٣ .

وفخر الدين أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد التفتازاني ثم البغدادي عصري ابن الفوطي[١] .

وأما المالكية الذين لم يكن مذهبهم منتشرًا في العراق يومذاك ولا عرف منهم علماء كبار فقد عُيّن لتدريسهم علم الدين أحمد بن عُمر الشرمساحي وهو أخو سراج الدين عبد الله الشرمساحي المغربي الإسكندراني الذي استقدمه الخليفة المستنصر مع طلبته للتدريس بها . وقد قدم علم الدين في خدمة أخيه سراج الدين وتطورت معارفه فرتب مدرسًا في البَشِيرية عند افتتاحها ، ثم تولى تدريس المستنصرية بعد وفاة أخيه سنة ٦٦٨ هـ وتوفي سنة ٦٧٣ هـ[٢] .

* * *

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٤ / الترجمة ٨١٥ ، وكتاب الحوادث ٣٢٤ .

المبحث الثاني

مدارس البصرة

احتلت البَصْرة والكُوفة منزلة متميزة في تاريخ الحركة الفكرية العربية في القرنين الأول والثاني الهجريين ، فكانتا من أعظم مراكز هذه الحركة في العالم الإسلامي ، يظهر ذلك واضحًا مما خصصه لهما ابن سَعْد المتوفى سنة ٢٣٠هـ في كتابه « الطبقات الكبير » . غير أن اتساع بغداد العمراني ورخاءها الاقتصادي وهيمنتها السياسية المتأتية من كونها عاصمة الدولة العباسية قد أدَّى إلى أن أصبحت منطقة جَذْب للعلماء ، فازدهرت الحركة الفكرية فيها أزدهارًا عظيمًا أدى إلى ضَعْف منزلة المصرين العربيين ، فلم يعودا موئلاً للعلم والمعرفة كسابق عهديهما .

وعلى الرغم مما اشتهرت به الكوفة من عناية بالشعر وعُلوم القرآن والفقه في صدر الإسلام إلا أننا لم نعد نسمع عن ظهور علماء بارزين فيها منذ القرن الرابع الهجري . أما البَصْرة التي اشتهرت باللغة والنحو فإن التَّدْمير الذي أصابها إثر حركة الزنج التي استمرت خمسة عشر عامًا (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ) قد أدى إلى هجرة الكثير من علمائها واستقرارهم في بغداد وواسط .

على أنَّ بُعْد البصرة عن بغداد وكونها من أكبر المدن في جنوب العراق جعل الحركة الفكرية فيْها أكثر نموًا من الكوفة في القرون المتأخرة ، فقد أنشأ أبو عليّ بن سِوَار في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خزانة كتب كبيرة كانت عامرة بنفائس الكتب[1] ، وخَصّها الوزير نظام الملك في منتصف

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم : ٤١٣ .

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بإحدى نظامياته ، وجُدِّدت في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بعض مدارسها ، كما أُنشئت فيها مدارس جديدة مما يدل على ازدهار الحركة الفكرية فيها . ومع ذلك فإنَّ البَصْرة لم تعد إلى سابق عهدها ولم تشر كتب التَّراجم إلى عدد كبير من علمائها ، وإليك ما وقفنا عليه من مدارسها :

١ ـ المدرسة النظامية : بعد ٤٥٩ هـ ـ ١٠٦٧ م

أنشأها الوزير نظام الملك في منتصف القرن الخامس الهجري ، فذكرها السُّبكي من بين النظاميات التي أنشأها نظام الملك في العالم الإسلامي[(١)] . والظاهر أنها كانت قريبة من المِرْبَد ومن المحلّة المجاورة لقبر الصحابي طَلْحة ابن عُبيد الله التَّيمي ، فقد ذكر ابن الأثير في حادثة نَهْب البصرة عندما حاصرها سيفُ الدولة سنة ٤٩٩ هـ أنه « لم يسلم منهم إلا المحلة المجاورة لقبر طَلْحة والمِرْبد ، فإنَّ العباسيين دخلوا المدرسة النظامية وامتنعوا بها وحموا المِرْبَد »[(٢)] .

ولم نقف إلا على مُدَرِّس واحد من مدرسيها هو أبو الفضل محمد بن قَنَان بن حامد بن الطيب الأنباري[(٣)] (٤٤٥ ـ ٥٠٣ هـ) .

٢ ـ مدرسة أبي العباس الجُرْجاني : قبل سنة ٤٨٢ هـ ـ ١٠٨٩ م

ذكرها ابن الصَّلاح في « طبقات الشافعية » ، وترجم لمدرسها أبي العباس

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٤ / ٤١٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ٨ / ٢٣٢ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦ / ١٧٥ .

أحمد بن محمد بن أحمد الجُرجاني الفقيه الأديب قاضي البصرة وشيخ الشافعية بها المتوفى سنة ٤٨٢ هـ[١] .

٣ ـ مدرسة أبي الفَرَج البَصْري : قبل سنة ٤٩٩ هـ ـ ١١٠٥ م

أنشأها قاضي البصرة أبو الفرج محمد بن عُبيد الله البَصْري الشافعي (٤١٨ ـ ٤٩٩ هـ) ، وذكرها جمال الدين الإسنوي في طبقاته وذكر أنها كانت في غاية الحسن[٢] .

٤ ـ مدرسة أبي المظفر باتكين : قبل سنة ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٣ م

وهي مدرسة للحنابلة أنشأها الأمير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرُّومي النَّاصري المتوفى سنة ٦٤٠ هـ وذلك عند ولايته البصرة من سنة ٦٠٧ هـ حتى سنة ٦٣٠ هـ ولم تكن للحنابلة مدرسة بالبصرة قبل هذه المدرسة[٣] . وكان باتكين هذا محبًا للعلم والعُلماء عُنِيَ بتجديد مدارس البَصْرة وأوقف فيها الكتب وانتشر العلم في زمانه ، وكان العلماء يقصدونه من جميع الآفاق فيرفدهم[٤] .

٥ ـ مدرسة أبي المظفر باتكين للطب : قبل ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٣

ذكر صاحب الكتاب المسمى بالحوادث[٥] أن أبا المظفر باتكين أنشأ

---

(١) ابن الصلاح : طبقات الشافعية ، بانتخاب النووي ، الورقة ٥٨ .

(٢) طبقات الشافعية : ١ / ٢٤٢ .

(٣) الحوادث : ٢٠٩ .

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام : ١٤/ ٣١٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٥٠٤ – ٥٠٥ .

(٥) الحوادث : ٢٠٩ .

بالبَصْرة « مدرسة يُقرأ فيها علم الطب وعمر مارستانًا كان قد خرب وتَعَطّل » .
وهذه المدرسة هي المدرسة الطبية الوحيدة التي وقفنا عليها في العراق في العصر العباسي ، ولا نعرف من أخبارها غير إنشائها .

٦ ــ مدرسة ابن دُويرة : قبل ٦٥٢ هـ ــ ١٢٥٤ م

أنشأها شيخ الحنابلة بالبصرة ورئيسهم ومدرسهم أبو عليّ الحسن بن أحمد ابن أبي الحَسَن بن دويرة البَصْري المقرئ الزاهد المتوفى سنة ٦٥٢ .

قال ابن رَجَب : « اشتغل عليه أمم ، وختم عليه القرآن أزيد من ألف إنسان ، وكان صالحًا زاهدًا ورعًا ، وحدث « بجامع الترمذي » بإجازته من الحافظ أبي محمد بن الأخضر ، فسمعه منه الشيخ نور الدين عبد الرحمن بن عُمر البَصْري (العبدلياني) مدرس المُستَنصرية ، وهو أحد تلامذته وعليه ختم القرآن وحفظ « الخِرَقي » عنده بمدرسته بالبصرة . وتوفى الشيخ أبو علي سنة اثنتين وخمسين وست مئة بالبصرة ، وولي بعده التدريس بمدرسته تلميذه الشيخ نور الدين المَذْكور وخُلِعَ عليه ببغداد في جُمادي الآخرة من السنة المذكورة »[1] ، وذكر أنه حينما ولي التدريس بهذه المدرسة أُلْبِسَ الطرحة السوداء ، ونَقَلَ عن ابن السّاعي أنه لم يَلْبَس الطرحة أعمَى بعد أبي طالب ابن الحَنبلي سوى الشيخ نور الدين العَبْدَلياني هذا .

* * *

(١) ابن رجب : الذيل ٢ / ٢٥٥ ، وتنظر ترجمة العبدلياني عنده ٢ / ٣١٤ .

المبحث الثالث

مدارس الكوفة

على الرغم من أن الكُوفة كانت في صدر الإسلام من أعظم مراكز دراسة الفقه الإسلامي ، إلا أننا لم نَعثر إلا على مدرسة واحدة لتدريس الفقه الحنفي أُنشئت في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . فقد ذكر محيي الدين القُرشي في ترجمة عبد الجبار بن علي الحَنَفي أنه ورد بغداد فتفقه بها على قاضي القضاة أبي عبد الله الدَّامغاني ، وبَنَى أمير الحاج مدرسة عند قبر يونس عليه السلام ورتبه للتدريس بها وأجرى عليه وعلى أصحابه جراية[١] ، وقال في ترجمة علي بن عُبيد الله الخَطِيبي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ : « وكان صاحبه عبد الجبار بن عليّ الخواري مدرس مشهد يُونس بن متى بالكوفة قد قرأ عليه »[٢] .

وقد أشارت المصادر إلى وجود دراسات في الكُوفة والنَّجَف لكنها كانت في مدارس مَسْجدية وليست في مدارس مستقلة .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) الجواهر المضيئة ١ / ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٣٦٤ .

المبحث الرابع
مدارس واسط[١]

في الوقت الذي ضعفت فيه الحركة الفكرية في كل من البَصْرة والكُوفة بعد القرن الثالث الهجري فإننا وجدناها تَنْشط في أماكن أُخرى منها مدينة واسط التي أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي في الربع الأخير من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) .

ويظهر أن عددًا من أهل البَصْرة قد هاجر إليها إثر حركة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ) .

ويشير تاريخ واسط الذي ألفه أسْلَم بن سَهْل الرّزاز المعروف بِبَحْشل المتوفى سنة ٢٨٢ هـ إلى نشاط علمي فيها ، ثم وجدنا هذا النَّشاط يزداد نموًا في القرون التالية ، فشهدت نشاطًا علميًا واسعًا لاسيما في علوم القرآن حيث كانت تُعد من أبرز المراكز الفكرية في العراق في هذه العلوم يقصدها كثير من طلبة العلم لأجل ذلك . وقد ذكرت كُتُب التراجم أعدادًا من العلماء الواسطيين في العصور العباسية المتأخرة ، كما ألف المؤرخ جمال الدين ابن الدبيثي الواسطي (٥٥٨ ـ ٦٣٧ هـ) تاريخًا كبيرًا عن علمائها ، مما يدل على ازدهار الحركة الفكرية فيها ، كما نقل نصير الدين الطوسي إثر الغزو المغولي المُدَمِّر الكثير من كُتُبها إلى مراغة .

وإليك ما وقفنا عليه من تلك المدارس :

---

(١) ينظر كتاب أستاذنا العلامة الدكتور ناجي معروف : مدارس واسط ، وكتاب المدارس الشرابية ، له أيضًا ..
وكتاب الدكتور عبد القادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي .

١ ـ مدرسة أبي عليّ الفارقي قبل ٥٢٨ هـ ـ ١١٣٣ م

وهي أول مدرسة وقفنا عليها بواسط أنشأها أبو عليّ الحَسَن بن إبراهيم الفارقي (٤٣٣ ـ ٥٢٨ هـ) ، فقد ذكر الإسنوي أنّه دفن في مدرسته بواسط[١] ، ولعله نقل ذلك من تاريخ ابن السمعاني ، وقد ذكرنا فيما سبق عند كلامنا على التعليم في المساجد أنَّ أبا علي الفارقي دَرَس ببغداد على أبي إسحاق الشيرازي ولازمَهُ إلى حين وفاته سنة ٤٧٦ هـ ، ثم ولي القضاء بواسط سنة ٤٨٥ هـ ، وبقي قاضيًا إلى سنة ٥١٣ هـ ، قال ابن النجار : ولى قضاء واسط سنة خمس وثمانين وعزل سنة ثلاث عشر وخمس مئة ، ولازم الإفادة بواسط[٢] ، فالظاهر أنه أنشأ هذه المدرسة بعد سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وليس بين أيدينا غير هذه الإشارة لها .

٢ ـ مدرسة ابن القارئ قبل سنة ٥٣٩ ـ ١١٤٤ م

أنشأها الشيخ أبو الفَضْل عليّ القُرشي الواسطي الشافعي المعروف بابن القارئ المتوفى سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م[٣] .

٣ ـ مدرسة خطلبرس : قبل سنة ٥٦١ هـ ـ ١١٦٦ م

ذكرها جمال الدين ابن الدبيثي في ترجمة أبي طالب جعفر بن ظَفَر بن يحيى بن محمد بن هُبيرة من تاريخه فقال : « من بيتٍ معروفٍ بالفضل والرياسة والتَّقَدّم ... تولى الإشراف بالديوان المعمور بواسط في سنة ست

---

(١) طبقات الشافعية : ٢ / ٢٥٧ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام : ١١ / ٤٧٣ .

(٣) مختصر أخبار الخلفاء : ١١٣ .

وست مئة وصارَ إليها ، وفي سنة سَبْع وست مئة وَلِيَ النَّظَر بالدِّيوان المذكور وأقامَ هناك إلى أن توفي يوم الخميس سادس عَشَر جُمادي الأولى سنة عَشْر وست مئة ، فدفن بها بمدرسة خطلبرس أعلى البَلَد »(١) . وهذه المدرسة منسوبة إلى خطلبرس متولي واسط للمدة من سنة ٥٥٠ هـ إلى سنة ٥٦١ هـ حيث قتل في هذا العام(٢) .

٤ ـ مدرسة الغَزْنوي : قبل سنة ٥٦٣ هـ ـ ١١٦٨ م

من مدارس الحنفية بواسط وكانت بمحلة الوَرَّاقين ، ومنشؤها هو أبو الفضل محمود بن أحمد بن عبد الرحمن الغزنوي الحَنَفي ، قال محيي الدين القرشي : « ذكره الحافظ ابن النجار وقال : صَحِبَ أبا الفتوح أحمد ابن محمد الغَزَّالي ، وأخذ عنه عِلْمَ الوعظ ، وقَدِمَ بغدادَ في سنة سبع وخمسين وخمس مئة وعقد مجلس الوعظ بجامع القَصْر ، ثم انتقلَ إلى واسط فسكنها إلى حين وفاته ، وقرأتُ في كتاب القاضي أبي الحُسين عليّ الواسطي بخطه ، قال : توفي محمود الغَزْنوي يوم الجُمعة ، ودُفن يوم السبت ثامن شعبان سنة ثلاث وستين وخمس مئة في مدرسته بمحلة الوَرَّاقين ، وكان يومًا مشهودًا »(٣) .

٥ ـ مدرسة ابن وَرَّام : قبل سنة ٥٧٣ هـ ـ ١١٧٨ م

ورد ذكر هذه المدرسة في طبقة سماع لتاريخ واسط لبَحْشَل ، فقد جاء فيها :

---

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٣ / ٦٥ .

(٢) ينظر تاريخ ابن الأثير : ١١ / ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٣) الجواهر المضيئة : ٢ / ١٥٤ – ١٥٥ .

« سمع جميع هذا الكتاب ، وهو تاريخ واسط لبَحْشل ... وذلك بواسط في مدرسة شرف الدولة محمد بن وَرَّام ـ نور الله ضَرِيحه ـ في مجالس آخرها الاثنين رابع عِشري ذي القَعْدة من سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة »(١) .

ولعل مؤسس هذه المدرسة هو شَرَف الدَّولة محمد بن وَرَّام الكُردي الجاواني الشافعي ، أخو الأمير سيف الدولة بَدْر بن وَرَّام ، المتوفى سنة ٤٧٢هـ(٢) ، فإن صح ذلك كانت من أقدم المدارس المُنشأة بواسط .

وذكر السبكي من المدرسين بها : الحَسَن بن أحمد بن عبد الله أبا عليّ الواسطي ، فقال : « دَرَّس بواسط بمدرسة ابن وَرَّام ، وبها مات في حادي عشر المحرم سنة ست وسبعين وخمس مئة »(٣) .

٦ ـ مدرسة ابن الكَيَّال : قبل سنة ٥٧٥ هـ ـ ١١٧٩ م

من مدارس الحَنَفية ، أنشأها القاضي أبو الفَتْح نصر الله بن عليّ بن مَنْصور ابن عليّ بن الحُسين الحَنَفي الواسطي المعروف بابن الكَيَّال المتوفَّى سنة ٥٨٦هـ قال محيي الدين القُرشي : « قَدِمَ بغداد في سنة ثلاث وعِشْرين وخمس مئة وهو شاب يطلب العلم ، وعَلَّق مسائل الخِلاف عن الحَسَن بن سلامة المَنْبِجي ، وعن القاضي إبراهيم الهِيتي حتى بَرَعَ ، وتكلَّم في مجالس المُناظرة ، وقرأ الأدب على أبي منصور الجَوَاليقي ، ثم عادَ إلى واسط ودَرَّس في مدرسةٍ

---

(١) ينظر المطبوع من تاريخ واسط : ٢٩٥ .

(٢) تنظر مقالة شيخنا علامة العراق الدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي ٤ / ١ / ٩٨ - ٩٩ لسنة ١٩٥٦ م .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى : ٧ / ٦٠ .

تُعرف به »[١] . وذكر ابن الدُّبيثي ـ كما ورد في « طبقات النحاة » لابن قاضي شهبة[٢] أنه تولى قضاء البَصْرة في سنة خمس وسبعين وخمس مئة وصار إليها وأقام بها مديدة يحكم بها ، وعُزل فعادَ إلى واسط ، وتولى القَضَاء بها في جُمادي الآخرة سنة أربع وثمانين وخمس مئة فكان على ذلك إلى أن تُوفي[٣] . وقال الذَّهبي في « تاريخ الإسلام » : « وتفقه ، وقرأ الخلاف ، وناظر ، ودَرّس ، ووَلِيَ قضاء البَصْرة سنة خمس وسبعين ، ثم قَدِمَ بغداد فأقرأ بها وكان غزيرَ الفضل واسعَ العلم ، ولي قضاء واسط وعاد إلى وطنه ... »[٤] فهذه النصوص تشير إلى إنشاء هذه المدرسة قبل سنة ٥٧٥ هـ وهي السنة التي تولّى بها قضاء واسط ، وقد تَوَلَّى التدريس فيها بعده ولدُه القاضي الفقيه أبو المحاسن عبد اللطيف بن نصر الله (٥٤٠ ـ ٦٠٥ هـ) ذكر ذلك ابن الدبيثي[٥] ، والمنذري[٦] ، وابن الساعي[٧] ، والذهبي[٨] ، والتَّميمي[٩] وغيرُهم ، وهو المُدرس بمدرسة مشهد أبي حنيفة أيضا .

---

(١) الجواهر المضيئة : ٢ / ١٩٨ .

(٢) الورقة : ٢٥٨ من نسخة الظاهرية .

(٣) وينظر المختصر المحتاج الملحق بالذيل ٥ / ٧٢ - ٧٣ .

(٤) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٨٢٧ .

(٥) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ١٩١ .

(٦) التكملة : ٢ / الترجمة ١٠٦٨ .

(٧) الجامع المختصر : ٩ / ٢٨١ .

(٨) تاريخ الإسلام : ١٣ / ١١٤ .

(٩) الطبقات السنية ٢ / الورقة ٥٥٣ .

٧ ـ المدرسة الشرابية : ٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٥ م

منسوبة إلى شرف الدين إقبال بن عبد الله الشُّرابي المتوفى سنة ٦٥٣ هـ مؤسس شَرَابية بغداد المقدَّم ذكرها ، ويقال لها الشَّرَفية ، وكان افتتاحها سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م ، قال صاحب الكتاب المسمى بالحوادث في حوادث السنة المذكورة : « في هذه السنة في سابع عِشْري شَعْبان فُتحت المدرسة التي أمر بإنشائها شرفُ الدين أبو الفَضَائل الشُّرابي للشَّافعية بالجانب الشَّرقي من واسط على دجلة مجاورة لجامع كان دائرًا ، فأمر بتجديد عمارته ، ورتب بها مدرسًا العَدْل أحمد بن نجا الواسطي ، ورُتِّبَ بها مُعيدان ، واثنان وعشرون فقيهًا ، وخُلِعَ على الجَميع وعلى من تَوَلَّى عِمَارتها من النُّوَّاب والصُّنّاع والحاشية الذين رُتِّبوا لخدمتها ، وعُمِلَ فيها دعوة حَسَنة حضرها صاحب الديوان ابن الدّباهي والنَّاظر بواسط والقاضي والنقيبان والقراء والشُّعراء ، وكان المتولي لعمارتها والذي جعل النظر إليه وإلى عقبه في وقفها أبو حفص عُمر بن أبي بكر بن إسحاق الدُّورقي »(١) .

وعُمر بن أبي بكر بن إسحاق الدُّوْرَقي هذا كان ذا مالٍ كثير فائض وجاه عَرِيض ، بَنَي بشرقي واسط جامعًا كان قد دثر يُعرف بجامع ابن رقاقا ، وعَمَّرَ إلى جانبه رباطًا وأسكنه جماعةً من الفُقراء ورتَّبَ فيه من يُلَقِّن القُرآن المجيد ويُسمع الحديث ، وأجرى عليهم الجرايات اليومية والشَّهْرية ، وتوفي ببغداد سنة ٦٤٨ هـ(٢) .

---

(١) كتاب الحوادث : ١٠٥ .

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٢٦٤ ، وكتاب الحوادث ٢٩٨ ، و تاريخ الإسلام : ١٤ / ٦٠٦ .

وممن دَرَّس في هذه المدرسة بعد أحمد بن نجا الواسطي : عمادُ الدين ابن ذي الفقار محمد العَلَوي الحَسَني المِرَنْدي الشافعي (٥٩٦ ـ ٦٨٠ هـ) رتب مدرّسا بها سنة ٦٤٨ هـ[١] ، وعمادُ الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني (٦٠٠ ـ ٦٨٢ هـ) صاحب كتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » المطبوع المشهور[٢] .

---

(١) كتاب الحوادث : ٢٩٧ .

(٢) كتاب الحوادث : ٤٦٩ .

المبحث الخامس

مدارس المَوْصل

برزت مدينة الموصل منذ القرن الثالث الهجري كمركز متميز من مراكز الحركة الفكرية بحيث ألف أبو زكريا الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) تاريخًا لعلمائها .

وفي مطلع القرن الرابع الهجري أنشأ أبو القاسم جعفر بن محمد بن حَمْدان المَوْصلي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ دار العلم في الموصل جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفًا على طلبة العلم لا يُمنع أحد من دخولها ، إذا جاءها غريب يطلب العلم وكان مُعْسِرًا أعطاه وَرَقًا ومالا ، وكانت تفتح في كل يوم(١) ، وهو أمر يدل على وجود حركة فكرية نشطة ازدهرت في القرن الخامس الهجري مما دفع نظام الملك إلى إنشاء إحدى نظامياته فيها ، ثم كَثُرت المدارس ونفقت سوق العلم حينما اتخذها الأتابكة عاصمةً لهم (٥٢٠ ـ ٦٦٠ هـ) ، فأصبحت المَوْصل في أواخر العَصْر العَبَّاسي من أبرز مراكزِ الحركة الفكرية في العراق بعد بغداد ، حيث ظهرَ فيها عددُ ضخم من العُلماء البارزين في شتى أنواع المعرفة ، فقصدها طلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامي واستوطن بعضهم فيها ولاسيما من أهل الشام حيث كانت هذه المدينة تقع في طريقهم إلى بغداد فكان لها أثر محمود في نمو الحركة الفكرية في بلاد الشام فيما بعد .

وحينما زار الرحالة ابن جُبير هذه المدينة سنة ٥٨٠ هـ قال : « وفي المدينة

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء : ٢ / ٤٢٠ .

مدارس للعلم نحو الست أو أكثر على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرقة »[١] .

وفيما يأتي ما وقفنا عليه من مدارسها حتى نهاية العصر العباسي[٢] .

١ ـ المدرسة النظامية : بعد ٤٥٩ هـ ـ ١٠٦٧ م

أمر ببنائها الوزير نظام الملك من أجل القاضي أبي بكر محمد بن الحَسَن ابن أبي خالد الخالدي المعروف بالسَّديد ، قال ابن الأثير في « الخالدي » من اللباب : « وبنى له نظام الملك مدرسة بالمَوْصل وهي الآن بالقرب من الجامع النُّوري وتعرف بهم » . وممن دَرَّس فيها محيي الدين محمد ابن القاضي كمال الدين الشَّهْرَزوري المتوفى سنة ٥٨٦ هـ[٣] ، وأبو العباس أحمد بن نصر بن الحُسين الأنباري المعروف بالشمس الدُّنبلي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ[٤] .

ويرى الأستاذ سعيد الديوه جي أنَّ المدرسة في الوقت الحاضر هي مرقد لابن عليّ ، وفيها قبر على يمين النازل إلى المَرْقد وعليه كتابة تشير إلى أن بدر الدين لؤلؤ عمره بعد أن اتخذ هذه المدرسة مشهدًا لابن عليّ .

٢ ـ المدرسة الأتابكية العتيقة : قبل سنة ٥٤٢ هـ ـ ١١٤٧ م

أنشأها سيف الدين غازي ابن عماد الدين زنكي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ قال أبو شامة : « وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة وهي من أحسن المدارس

(١) رحلة ابن جبير : ٢١٥ .

(٢) ينظر بحث الأستاذ سعيد الديوه جي : مدارس الموصل في العهد الأتابكي (سومر م ١٣ لسنة ١٩٥٧ م وكتاب الدكتور ناجي معروف : علماء النظاميات (بغداد ١٩٧٣) .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية : ٦ / ١٨٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٦ / ٦٧ .

وأوسعها ، وجعلها وقفًا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين ، ووقفَ عليها الوقوف الكثيرة »[١] ثم دفن فيها .

وممن دَرَّس فيها : أبو البركات عبد الله بن الخَضِر بن الحُسين المَوْصلي المعروف بابن الشيرجي المتوفى سنة ٥٧٤ هـ[٢] ، والإمام شرف الدين أبو سَعْد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التَّيميمي الحَدِيثي ثم المَوْصلي الدمشقي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ فقد ذكر ابن الدُّبيثي أنه دَرَّس الفقه بالمَوْصل سنة ٥٢٣ هـ[٣] ، وقال عماد الدين الأصفهاني القُرشي في « الخريدة » : « لقيته بالمَوْصل سنة اثنتين وأربعين ـ يعني وخمس مئة ـ وهو مدرس بالأتابكية »[٤] . والشيخ ظهير الدين عبد السلام بن محمود الفارسي ، قال ابن باطيش : « قدم الموصل فصادف من صاحبها (نور الدين أرسلان) قبولاً وفَوَّض إليه تدريس الفريقين الشافعية والحنفية ، وبقي فيها مدة يدرس وافر الحرمة ثم توجه إلى حلب على عزيمة العود إلى المَوْصل ثم مات بها سنة ست وتسعين وخمس مئة »[٥] ، وقال زكي الدين المنذري في وفيات سنة ٥٩٦ هـ من « التكملة » : « وفي السابع عَشَر من شعبان توفي الفقيه الإمام أبو المعالي عبد السلام بن محمود بن أحمد الفارسي المنعوت بالظَّهير بمدينة حلب ... وكان قَدِمَ مصرَ وسمعَ بالإسكندرية وأجاز لنا بدمشق في جُمادي الآخرة سنة خمس وتسعين وخمس مئة جميع ما

---

(١) الروضتين : ١ / ٦٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ / ٦٥ .

(٣) ذيل تاريخ مدينة السلام : ٣ / ٤٩٤ .

(٤) خريدة القصر (القسم الشامي) ٢ / ٣٥٢ .

(٥) السبكي : طبقات الشافعية : ٧ / ١٧٠ .

يثبت عندنا من مسموعاته ومجازاته ومناولاته في سائر العلوم بعد التحري في استيعاب الشرائط المعتبرة ، وكان مشارًا إليه في الخلاف والأصول والكلام ، له في ذلك تصانيف لم يظهر منها إلا قليلاً ، ووَلِيَ تدريس الفريقين بالمَوْصل في المدرسة الأتابكية العتيقة مدة »[١] .

٣ ـ المدرسة المهاجرية : قبل سنة ٥٨٥ هـ ـ ١١٨٩ م

أنشأها عُلْوان بن مُهاجر بن عليّ بن مهاجر المَوْصلي ، والد محمد بن مهاجر المتوفى سنة ٦١٥ هـ . ولم أقف على ترجمة علوان ، ولكن يظهر أنها أُنشئت في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكانت من المدارس المعلّقة لأنها كانت فوق دار الحديث المهاجرية التي كانت مشيّدة قبل سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي قال في ذكر حاله « ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمس مئة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عَيْني ويحل ما يشكل عليّ ودخلتُ المَوْصل فلم أجد فيها بُغيتي لكن وجدت الكمال ابن يونس جيدًا في الرياضيات والفقه متطرفًا من باقي أجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حُب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها ، واجتمع إليّ جماعة كثيرة وعُرضت عليّ مناصب فاخترتُ منها مدرسة ابن مُهاجر المعلّقة ودار الحديث التي تحتها وأقمتُ بالمَوْصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهارًا »[٢] ، وقال جمال الدين ابن الدُّبيثي في ترجمة محمد بن عُلوان بن

---

(١) التكملة : ١ / الترجمة ٥٤٠ .

(٢) عيون الأنباء : ٢ / ٢٠٤ .

مُهاجر من تاريخه : « قَدِمَ بغداد في صباه وأقام بها للتفقه مُديدة بالمدرسة النظامية ، والمُدَرِّس بها يومئذ يوسف بن عبد الله الدِّمشقي ، وسمع بها الحديث من جماعةٍ منهم ، وعادَ إلى بلده ولازم أبا البركات عبد الله بن الخَضِر ابن الشيرجي الفقيه ودرس عليه حتى حَصَّل معرفة المذهب والخلاف ، ودرّس بمدرسة أنشأها لنفسه بسكة أبي نَجِيح ثم دَرَّس بمدارس أخرى لغيره ، وقَدِمَ بغداد حاجًا ورأيتُه بها ثم لقيتهُ بالموصلِ وكتبتُ عنه بها وسألته عن مولده فقال في سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة بالموصل »[١] .

ونص ابن الدُّبيثي هذا يشير إلى أنَّ أبا المظفر محمد بن عُلْوان قد أنشأ لنفسه مدرسة بسكة أبي نَجيح ، لكن المصادر المعاصرة الأخرى لا تشير إلا إلى تلك التي أنشأها والده علوان ، قال زكي الدين المنذري : « ودَرَّس بالمدرسة التي أنشأها والده عُلْوان ودَرَّس أيضًا بمدارس أخرى »[٢] ، وقال مثل ذلك الذهبي[٣] والصفدي[٤] والسُّبكي في « الطبقات »[٥] فما أظن ابن الدُّبيثي إلا واهمًا .

وقد تولى التدريس في هذه المدرسة بعد أبي المظفر محمد بن عُلْوان ولداه عماد الدين أحمد ومحي الدين عبد الكريم ، قال ابن الفُوطي : « عماد الدين أبو نصر أحمد بن محمد بن عُلْوان بن مُهاجر المَوْصلي المدرِّس ، ذكره القاضي تاج الدين يحيى بن القاسم بن المفرِّج التَّكْريتي في تاريخه ، وقال : هو

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام : ١ / ٥٤٠ .

(٢) التكملة : ٢ / الترجمة ١٥٧٤ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١٣ / ٤٤٩ .

(٤) الوافي : ٤ / ٩٨ .

(٥) طبقات الشافعية : ٨ / ٨١ .

من بيت العلم والفقه والتَّدريس وَبَنَى جده عُلْوان بن مهاجر بالمَوْصل مدرسةً للفقهاء في سكة بني (كذا ، والصواب : أبي) نَجيح ووقف عليها وقوفًا متوفرة الحاصل . وأما عماد الدين فإنه قرأ القُرآن الكريم والفقه والخلاف ، وقَدِمَ بغداد وسكن النِّظامية وجالسَ العُلماء ، ولما توفي والده في ذي الحجة سنة أربع عشرة وست مئة (كذا) ولي عماد الدين مكان والده وخُلِعَ عليه »[١] .

وقال : « محيي الدين أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن عُلوان بن مهاجر المَوْصلي المدرس ، ذكره تاج الدين ، وقال : دَرَّس بعد أبيه ورأيته بالمَوْصل وكان ذا مال طائل وجاه وأفضال »[٢] .

٤ ـ المدرسة الزَّينية : قبل سنة ٥٦٣ هـ ـ ١١٦٨ م

منسوبة إلى منشئها زين الدين أبي الحَسَن عليّ بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ، وهو والد مظفر الدين كوكبري صاحب إرْبل ، وتُعرف أيضًا بالكمالية نسبة إلى مدرسها العالم الكبير كمال الدين أبي الفَتْح موسى بن يونس ابن محمد بن مَنَعَة العُقيلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ نُسبت إليه لطول إقامته بها .

وكانت هذه المدرسة في الأصل مسجدًا بناه زين الدين علي بن بكتكين المذكور ولاتزال بقايا هذه المدرسة قائمة تُشرف على نهر دجلة تُعرف بمدرسة ابن يونس ، وفيها حُجرة كبيرة مثمنة الشكل فوقها قبة تستند إلى مُقَرْنصات وهي مبنية بالآجر .

وممن درس في هذه المدرسة أيضًا عماد الدين أبو حامد محمد بن يونُس

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٧٤ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٧٩٧ من الميم .

ابن محمد بن مَنَعة العُقيلي الشافعي أخو كمال الدين المقدم ذكره (٥٣٥ ـ ٦٠٨ هـ) ، قال ابن الفوطي : « ودَرَّس بالموصل في خمس مدارس وهي النُّورية والعِزِّية والزَّينية والبَقْشِية والعلائية »[١] .

كما أعاد بها الفقيه الشافعي أبو عليّ الحسن بن عثمان . بن علي الجزري نزيل الموصل المتوفى سنة ٦٠٦ هـ[٢] .

٥ ـ المدرسة الكمَالية القَضَوية : قبل سنة ٥٧٢ هـ ـ ١١٧٦ م

من مدارس الشافعية أنشأها كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرَزوري الشيباني (٤٩٢ ـ ٥٧٢ هـ) ، قال ابن خَلِّكان : « وتولى القضاء بالمَوْصل وبَنَى بها مدرسةً للشافعية »[٣] .

ودرس بها بعده ولده جلال الدين عبد الرحمن المتوفى في حياة والده شابًا سنة ٥٦٦ هـ[٤] . كما دَرَّس بها ولده الآخر قاضي القضاة ـ فيما بعد ـ محيي الدين محمد المتوفى سنة ٥٨٦ هـ وهو ممن درس بالنظامية كما تقدم[٥] . ومن المدرسين بها أيضًا أبو العباس أحمد بن نَصْر بن الحُسين الأنباري المعروف بالدُّنبلي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وهو من مدرسي النظامية أيضًا كما تقدم ، وبهاء الدين أبو المحاسن يوسُف بن رافع الأسدي المعروف بابن شداد

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ ، ومصادر ترجمته في تعليقنا على تكملة المنذري ٢ / الترجمة ١١٩٨ .

(٢) ابن الساعي : الجامع المختصر ٩ / ٣٠٩ .

(٣) وفيات الأعيان : ٤ / ٢٤١ .

(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية : ٢ / ١٠١ .

(٥) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٨٢٣ .

المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . ولد ابن شَدَّاد بالمَوْصل سنة ٥٣٩ هـ وحفظ بها القرآن وما يحتاجه من إلمام جيد بالعلوم ، قال ابن خَلّكان : « ثم انحدرَ إلى بغدادَ بعد التأهيل التام ونزل بالمدرسة النِّظامية وترتب فيها مُعيدًا بعد وصوله إليها بقليل وأقام معيدًا نحو أربع سنين ، والمدرِّس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبد الله بن محمد الشَّاشي ، وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التَّدْريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمس مئة ثم أَصْعَدَ إلى الموصل في سنة تسع وستين ، فترتب مدرسًا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن الشَّهرزوري ولازمَ الاشتغال ، وانتفع به جماعة »[1] .

٦ ـ المدرسة المجاهدية بعد سنة ٥٧٦ هـ ـ ١١٨٠ م

منسوبة إلى مؤسسها مجاهد الدين أبي منصور قايماز بن عبد الله الزَّيْني ، وتُعرف بالمدرسة الزينية ، وبمدرسة قايماز أيضًا ، بناها بعد أن فرغ من بناء الجامع المُجاهدي في المَوْصل الذي شرعَ ببنائه سنه ٥٧٢ هـ ، وكان قد انتقل من إرْبل إلى المَوْصل سنة ٥٧١ هـ وتولَّى أمور قلعتها ، قال ابن السَّاعي : « وبَنَي جامعًا بظاهر المَوْصل ، وبَنَي إلى جنبه مدرسةً للشافعية ، ورباطًا للصوفية ، ومارستانًا للمرضى ، إلى غير ذلك من الخانات للسَّابلة في الطرق والقَنَاطر ، ووقفَ على الكل وقوفًا حسنةً متوفرةَ الحاصل »[2] .

وقد انتهى بناء الجامع سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م فيكون عندئذ بناء المدرسة

---

(١) وفيات الأعيان : ٧ / ٨٦ – ٨٧ .

(٢) الجامع المختصر : ٩ / ٨ .

بعيد هذا التاريخ[١] وتُوفي مجاهد الدين في شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٥ هـ[٢] .

٧ ـ المدرسة العزية : بين ٥٧٦ و ٥٨٩ هـ ـ ١١٨٠ و ١١٩٣ م

ابتناها عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي المتوفى في شعبان سنة ٥٨٩ هـ بباب دار المملكة ، وهي من المدارس الثنائية بين الحنفية والشافعية ؛ قال ابن الاثير : « وهو الذي ابتنى المدرسة العزّية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة حَسَنة جعلها للفريقين الحَنَفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ما ليسَ لمدرسة أخرى من الفواكه والحَلْوى والدعوات في المواسم والأعياد والتّشريج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقَرَّر في وقفها من الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المُباركة شيئًا كثيرًا ، كما أنشأ له تُربةً فيها ودُفن في هذه التربة بعد موته »[٣] .

وقال شمس الدين ابن خَلِّكان في ترجمته : « وكان قد بَنَي بالموصل مدرسةً كبيرةً وقفها على الفُقهاء الشافعية والحنفية ، فدُفِن في هذه المدرسة في تُربة هي بداخلها رحمه الله تعالى ، ورأيتُ المدرسةَ والتُّربة وهي من أحسن المدارس والتُّرَب ، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها وبينهما ساحة كبيرة »[٤] .

وذكر الأستاذ سعيد الديوجي يرحمه الله أنه لم يبق من هذه المدرسة سوى

---

(١) وتنظر مجلة سومر ، العدد ١١ / ١٧٠ - ١٧٩ .

(٢) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٤٧٣ وتعليقنا عليها .

(٣) التاريخ الباهر ٣٥٤ ، وينظر الروضتين لأبي شامة ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ومرآة الزمان للسبط ٨ / ٢٤٥ .

(٤) وفيات الأعيان : ٥ / ٢٠٧ .

حجرة واحدة مُربعة الشكل فيها ضريح يقال له ضريح الإمام عبد الرحمن ، وفوق الحجرة قُبة مثمنة الشكل وفيها محراب من المرمر الأزرق مطعم بالمرمر الأبيض وحوله كتابات كُوفية .

وممَّن دَرَس في المدرسة العزية عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن محمد بن منعة العُقيلي الشافعي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ[١] .

٨ ـ مدرسة أم الملك الصالح : بعد سنة ٥٧٧ هـ ـ ١١٨١ م

وقفت هذه المدرسة أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ابن عماد الدين زَنْكي الذي خلف أباه بعد موته سنة ٥٦٩ هـ ثم تزوجها عز الدين مسعود ونقلها إلى المَوْصل سنة ٥٧٧ هـ . وقد ورد ذكر هذه المدرسة في « التاريخ الباهر »[٢] . ويرى الأستاذ سعيد الديوه جي أنَّ موقعها بالقُرب من الإمام عبد الرحمن .

٩ ـ المدرسة النُّورية : بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ و ١٢١١ م

منسوبة إلى منشئها الملك العادل نور الدين أبي الحارث أرسلان شاه ابن عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي . تولى الحكم من سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م إلى حين وفاته سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م[٣] قال ابن خَلِّكان : « وبَنَى مدرسةً للشافعية بالموصل قلَّ أن توجد مدرسة في حسنها »[٤] .

---

(١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٢) التاريخ الباهر : ١٣٠ .

(٣) المنذري : التكملة ٢ / الترجمة ١١٦٢ وتعليقنا عليها .

(٤) وفيات الأعيان : ١ / ١٩٣ .

كانت هذه المدرسة تقابل دور المملكة فهي فيما يظن الأستاذ الديوه جي كانت البناية التي اتخذت فيما بعد مقامًا عُرف بمقام الإمام مُحْسن . وقد أوقف نور الدين الأوقاف الدارة على مدرسته ، وجعل فيها ستين فقيهًا شافعيًا(١) ، وممن دَرَّس فيها الفقيه عماد الدين أبو حامد ابن منعة العُقيلي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ(٢) ، والشيخ ركن الدين حسن بن محمد ابن شرف شاه الحُسيني الإسترابادي المتوفى سنة ٧١٥ هـ(٣) .

١٠ ـ المدرسة البقشية : قبل سنة ٦٠٨ هـ ـ ١٢١١ م

هكذا ذكرها ابن الفُوطي بخطه المتقن في ترجمة مدرسها عماد الدين ابن يونس المتوفى سنة ٦٠٨ هـ(٤) ، وكذلك وردت في ثلاث نسخ من كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان(٥) وفي « الشذرات » : « البغشية »(٦) .

وقد رجح الأستاذ الديوه جي أنها « النفيسية » ، لما عُرف من عدة مقامات في المَوْصل تُعرف بالست نفيسة . على أنَّ ما ورد بخط ابن الفُوطي له قيمة عُظمى عند التَّرجيح .

---

(١) التاريخ الباهر : ٣٦٨ ، والروضتين ٢ / ٢٢٧ .

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ٩ / ٢٣١ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٥) وفيات الأعيان : ٤ / ٢٥٣ .

(٦) شذرات الذهب ٥ / ٣٤ ولاشك أنها تصحيف فالمؤلف إنما ينقل من وفيات الأعيان .

١١ ـ المدرسة العلائية : قبل سنة ٦٠٨ هـ ـ ١٢١١ م

لا نَعْرف عنها أكثر مما ذكره ابن الفُوطي في تلخيصه[١] من أن عماد الدين أبا حامد ابن يونس قد دَرَّس بها ، ثم تولاها بعده أخوه كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس المتوفى سنة ٦٣٩ هـ[٢] .

١٢ ـ المدرسة البدرية : قبل سنة ٦١٥ هـ ـ ١٢١٨ م

منسوبة إلى بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله صاحب المَوْصل المتوفى سنة ٦٥٧هـ ، ابتناها بالموصل قبل سنة ٦١٥ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها مدرسها أبو المظفر محمد بن علوان بن مُهاجر[٣] .

أنشأ بدر الدين مدرسته على أنقاض مسجدٍ بقلعة المَوْصل شيّده الحُسين ابن سعيد بن حَمْدان بن حَمْدون التغلبي في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

وفي سنة ٦٣٧ هـ شيد بدر الدين مشهدًا للإمام يحيى بن القاسم في هذه المدرسة ، ثم دُفِنَ هو في المشهد نفسه ، ولاتزال قبة المشهد باقية إلى اليوم ، وهي من العمائر النفيسة التي وصلت إلينا ، وهي في شمال الموصل تشرف على نهر دجلة ، ولم يبق منها سوى المشهد الذي دُفن فيه بدر الدين .

وقد كان لهذه المدرسة دور في تنشيط الحركة الفكرية في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، دَرَّس فيها عدد من كبار العلماء منهم شرف الدين

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٣١٦ .

(٣) المنذري : التكملة ٢ / الترجمة ١٥٧٤ .

محمد بن عُلوان بن مهاجر المذكور ، وكمال الدين ابن يونس العقيلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ .

وممن أعادَ بها لابن يونس العلامة أثير الدين المُفَضَّل بن عمر بن المفضل الأَبْهري صاحب التصانيف المشهورة المتوفى سنة ٦٦٣ هـ[١] . وكان من المعيدين بها أيضًا عماد الدين إسماعيل بن هبة الله بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥ هـ ، قال ابن الفُوطي : « ذكره شيخُنا تاج الدين ، وقال : قدم بغداد وتفقه بالنظامية ، فبرعَ في الفقه مذهبًا وخلافًا ، وحَصَّلَ علم الأدب ، وسمعَ الحديث ورواه ، وعادَ إلى المَوْصل ورُتِّبَ معيدًا بالمدرسة البَدْرية وخازن كتبها ، وصنف عدة كتب »[٢] .

١٣ ـ المدرسة القاهرية : قبل سنة ٦١٥ هـ ـ ١٢١٨ م

منسوبة إلى مُنشئها القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي المتوفى سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ودُفن فيها ، ولعل موضعها اليوم قرب كنيسة الطاهرة الفَوْقانية .

وممن دَرَّس في القاهرية عند افتتاحها العلامة كمال الدين ابن يونس العُقيلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ[٣] ، ثم وَلِيَها ابنُه شرفُ الدين أحمد (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) سنة ٦١٧ هـ ؛ قال ابن خَلِّكان ـ وهو من تلامذته في إرْبل ـ : « وكنتُ أحضر دروسه وأنا صغير وما سمعت أحدًا يلقي الدروس مثله ولم يزل على ذلك إلى أن حج ثم عاد وأقام بها ملازم الاشتغال والإفادة إلى أن توفي يوم الاثنين الرابع

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٣١٣ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٩٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٣١٦ .

والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وست مئة »[١] .

وممن ولي التدريس بها محمد بن علي المعروف بالإمام ابن بنت الرَّضِي يونس بن مَنَعة العُقيلي ، وهو ممن تفقه على خاليه عماد الدين بن يونس وكمال الدين بن يونس ، ودَرَّس بها إلى حين وفاته سنة ٦٢٢ هـ فكأنه وليها بعد شرف الدين ابن كمال الدين[٢] .

١٤ ـ المدرسة الصارمية : قبل سنة ٦٢٣ هـ ـ ١٢٢٦ م

وتُعرف بمدرسة ابن بلدجي نسبة إلى مدرسها شهاب الدين أبي الثناء محمود ابن مودود بن محمود بن بلدجي المَوْصلي الحَنَفي (٥٤٣ ـ ٦٢٣ هـ) ولعله هو الذي أنشأها[٣] ، وخلفه فيها وفي مناصبه التدريسية الأخرى ولده عماد الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن محمود (٥٩٧ ـ ٦٤١ هـ)[٤] .

١٥ ـ المدرسة اليوسفية : قبل ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦

من مدارس الحنفية بالمَوْصل وكانت على نهر دجلة ، ولا نعرف من أخبارها سوى أنَّ أبا الفتح نصر الله المَوْصلي المعروف بابن الشُيين (٥٨٧ ـ ٦٥٤ هـ) كان من المدرسين بها[٥] .

* * *

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ١ / ١٠٨ .

(٢) الإسنوي : طبقات الشافعية ٢ / ٥٧٣ - ٥٧٤ .

(٣) السلامي : منتخب المختار : ٧٦ ، والقرشي : الجواهر المضيئة ٢ / ١٦٢ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١١٠٥ .

(٥) القرشي : الجواهر المضيئة ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ .

المبحث السادس

مدارس أربيل

لم تكن مدينة إرْبل (أربيل) من المراكز العلمية في القرون الأولى ، لكنها برزت في القرن السابع الهجري لتكون من المراكز النامية نموًا سريعًا ، فظهر فيها عددٌ من العُلماء ، وجذبت عددًا أكبر ، وأنشئ فيها عدد من المعاهد العلمية ، يظهر ذلك من عنوان الكتاب الذي ألّفه شرفُ الدين أبو البركات المُبارك بن أحمد اللَّخمِي الإربلي المعروف بابن المستوفى المتوفى سنة ٦٣٧هـ في تاريخها وسماه « نباهة البَلَد الخامل بمن ورده من الأماثل » . ولا أدل على ضعف الحركة الفكرية فيها قبل القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) ما ذكره مؤرخها ابن المستوفي في ترجمة أبي حفص عُمر بن محمد ابن طبرزد المتوفى سنة ٦٠٧ هـ من أن أبا سعيد كوكبري بن عليّ « لما بَنَي دارَ الحديث لم يكن بإربل من يُسمع بها ، فمرّت على ذلك مدة فأُنهيت هذا الحال إليه ، فقال : كيف الطريق إلى ذلك ؟ فقلتُ : إحضار مشايخ من بغداد عندهم حديث يُسْمَع عليهم ، ثم عينته وعينت حَنْبلاً (هو حنبل بن عبد الله الرُّصافي) لسماع « المُسند » (يعني مسند الإمام أحمد) فكتب كتابًا إلى الديوان العزيز ـ أجلَّهُ اللهُ ـ يطلبهما وأنفذَ لهما نفقةً تامةً ، فوصلا في سنة اثنتين وست مئة فنزلا بدار الحديث بإربل »[1] ، فمن المدارس المستقلة بإربل :

١ ـ مدرسة القَلْعة ٥٣٣ هـ ـ ١١٣٩ م

أنشأها الأمير أبو منصور سَرَفْتِكِين الزَّيني نائب صاحب إرْبل في سنة

---

(١) تاريخ إربل : ٢ / ١٥٩ .

٥٣٣هـ لأبي العباس الخَضِر بن نصر بن عقيل بن نصر الإِرْبلي (٤٧٨ ـ ٥٦٧ هـ) ، قال ابن خَلِّكان « كان فقيهًا فاضلاً عارفًا بالمذهب والفرائض والخلاف : اشتغل ببغداد على إلكيا الهَرّاسي وابن الشّاشِي ، ولقي عدة من مشايخها ، ثم رجع إلى إِرْبل وبَنَي له بها الأمير أبو منصور سرفتكين بن عبد الله الزَّيْني نائبُ صاحب إِرْبل مدرسةَ القَلْعة ، وتاريخها سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة ، ودَرَّس فيها زمانًا ، وهو أول من دَرَّس بإربل ... وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع عَشَر جُمادي الآخرة سنة سبع وستين وخمس مئة بإِرْبل ، ودُفن بها في مدرسته التي بالرَّبَض في قُبَّة مُفْردة ، وقبره يزار وزرته كثيرًا »[1] .

٢ ـ المدرسة العقيلية : قبل سنة٥٦٧هـ ـ ١١٧٢ م

أنشأها الفقيه أبو العباس الخَضِر بن نَصْر بن عَقِيل بن نصر الإربلي المتقدم ذكره في الرَّبَض ، عرفنا ذلك مما ذكره زكي الدين المنذري في ترجمة ابن أخيه نَصْر بن عَقِيل المتوفى ٦١٩هـ ، قال في وفيات السنة المذكورة : « وفي الثالث عَشَر من شهر ربيع الآخر أيضًا تُوفي الفقيه الأجل أبو القاسم وأبو المظفر نَصْر بن عَقِيل بن نَصْر بن عَقِيل الإربلي بالمَوْصل بظاهرها ، ومولده بإربل سنة أربع وثلاثين وخمس مئة . تفقه بإربل على عَمّه أبي العباس الخَضِر بن نصر بن عقيل ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بالنظامية مدة وسمع . ورجع إلى إِرْبل وَوَلِيَ التدريس بها بالمدرستين اللتين كان عمه يُدَرِّس بهما بالقلعة والرَّبَض وأقامَ بها يُدرس ويفتي ، ثم

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

توجه إلى المَوْصل فلم يزل بها مُكْرَمًا إلى أن مات »[١] . وقال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « تفقه على عمه أبي العباس الخَضِر ، ثم أتى بغدادَ وأقامَ بالنِّظامية مدة ، وسمع من أبي الفَضْل أحمد بن صالح الجيلي وغيره ، ورجعَ إلى بلده ، وَوَلِيَ التدريس بها بالمدرستين اللَّتين كان عَمُّه يُدرِّس بهما بالقلعة والرَّبض فدرَّسَ وأفتى مدةً ، ثم قدم الموصل ، وتوفى في ثالث عَشَر ربيع الآخر »[٢] . وذكر ابن الملقن في « العقد المذهب » أنه ترك إربل إلى الموصل سنة ٦٠٦ هـ[٣] . فهذه النصوص تشير صراحة إلى وجود مدرستين دَرَّس بهما أبو العباس الخضر وابنُ أخيه نَصْر بن عَقِيل ، وقد تَوَهَّم أستاذنا العلامة الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ فظنهما مدرسةً واحدةً[٤] .

وممن دَرَّس بالمدرسة العُقيلية علمُ الدين أبو البركات محمد بن عبد السلام ابن محمد بن عبد العزيز بن هبة الله ابن الخطيب السِّنْجاري ، قال ابن الفُوطي : « كانت الخطابة بسنجار في آبائه وأجداده ، ودَرَّس بإربل بالمدرسة العُقيلية ، ثم اتصلَ بمظفر الدين كوكبري وصارَ من المشيرين إليه ، وأنفذَهُ إلى بغداد رسولاً ، وتولى القضاء بملطية ... توفي بملطية سنة تسع عشرة وست مئة »[٥] .

ومن المدرسين بهتين المدرستين أيضًا : القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله ابن أبي بكر المهاني المتوفى سنة ٦٢٧ هـ ، قال ابن المستوفي في « تاريخ

---

(١) التكملة ٣ / الترجمة ١٨٧١ .

(٢) تاريخ الإسلام : ١٣ / ٥٨٨ .

(٣) العقد المذهب ، الورقة ٢٦٦ (دار الكتب المصرية) .

(٤) ينظر تعليقه على تلخيص مجمع الآداب ٤ / ١ / ٦٢٢ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩١٠ .

إربل » : « وَلِيَ القضاء بإربل وأقامَ بها مدةً ، وكانت ولايته سنة سبع وست مئة وعزل عنها . وولي تدريس المدرستين بالقَلْعة والرَّبَض ... »[١] ، وذكر محققه صديقنا الدكتور سامي الصقار بأن مدرسة القَلْعة هي المدرسة العقيلية ، أما مدرسة الرَّبَض فيبدو أنها ابتنيت خارج القَلْعة وليس معروفًا من هو بانيها ولعلها هي المدرسة المُجاهدية[٢] ، وهذا ليس بجيد وهو متابعة في قسمه الأول للدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ وقد مر بنا قول ابن خَلِّكان ـ وهو من أهل إربل ـ بأن أبا العباس الخَضِر بن عقيل دُفن بمدرسته التي بالرَّبَض .

٣ ـ المدرسة المُجاهدية : قبل سنة ٥٧١ هـ ـ ١١٧٥ م

ابتناها مجاهد الدين أبو منصور قايماز قبل انتقاله إلى المَوْصل سنة ٥٧١ هـ وكان مجاهد الدين مملوكًا اشتراه زينُ الدين والد الملك المعظم مظفر الدين كوكبري صاحب إربل وقَدَّمَهُ في دولته حتى صارَ صاحب الأمر فيها وصار يُعرف بمجاهد الدين الزَّيْنِي .

وممن دَرَّس في هذه المدرسة الفقهية نجم الدين أبو حفص عُمر بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خَلِّكان الإربلي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ وهو عم شمس الدين ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » ، قال زكي الدين المُنْذري : « تفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وسمع بإرْبل من شيخنا أبي حفص عُمر ابن محمد بن طَبَرزَد .. وجاورَ بالحَرَم الشريف سنين وحدَّث بمكةَ شرَّفها الله تعالى وبإربل ودَرَّس بالمدرسة المُجاهدية بإربل »[٣] .

---

(١) تاريخ إربل : ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) تاريخ إربل ، ص ٢٥٦ من قسم التعليق .

(٣) التكملة : ٢ / الترجمة ١٢٦٠ .

وذكر السُّبكي أنه بقي مدرسًا بها إلى حين وفاته[١] .

ثم تولى التدريس بها بعده أبو الفوارس المُشَرّف بن عبد اللطيف بن عبد البر القَزْويني ، قال أبو البركات المستوفى في « تاريخ إربل » : « ورد إرْبل في سنة أربع وتسعين وخمس مئة ونُصِّبَ شيخًا لدار الحديث المُظَفَّرية بإربل ، وهو أول من أقامَ بها ، وحضرَ خُطبته لما فُتِحت الفقير إلى الله أبو سعيد كوكبوري والعُلماء بإربل وجماعة كثيرون ، وكان يعرض لولايتها جماعةٌ من عُلماء إرْبل فما أُعطوها ، وحضرتُ معهم وأقامَ بها يُسْمِع الحديثَ على من وردها ، وأقامَ بدار الحديث ـ عَمَّرها الله ـ إلى أن توفي الفقيه عُمر بن إبراهيم ابن أبي بكر الخَلّكاني في ثالث عَشَر رمضان سنة تسع وست مئة فانتقلَ إلى المدرسة المُجاهدية مدرسًا بها إلى أن توفي ... وكان عالمًا بأصول الفقه والمذهب »[٢] .

٤ ـ المدرسة المظفرية : قبل سنة ٦٠٨ هـ ـ ١٢١١ م

منسوبة إلى منشئها الملك المعظم مظفر الدين أبي سعيد ابن زين الدين كوكبري صاحب إرْبل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ أنشأها قبل سنة ٦٠٨ هـ وهي السنة التي ولد فيها شمس الدين ابن خَلّكان صاحب « وفيات الأعيان » ابن مُدرسها شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر المتوفى سنة ٦١٠ هـ ، قال شمس الدين ابن خَلّكان في ترجمة شيخته زينب الشَّعْرية : « ولنا منها إجازة كتبتها في بعض شهور سنة عَشْر وست مئة ، ومولدي يوم الخميس بعد

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٣٠٨ .

(٢) تاريخ إربل : ٣٢٨ – ٣٢٩ .

صلاة العصر حادي عَشَر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وست مئة بمدينة إرْبل بمدرسة سُلْطانها الملك المعظم مظفر الدين ابن زين الدين رحمهما الله »[١] .

وقال زكي الدين المنذري في ترجمة شهاب الدين والد شمس الدين ابن خَلِّكان : « وحَدَّث بإرْبل ، ودَرَّس بها بالمدرسة المظفَّرية »[٢] . ودَرَّس بها أيضًا شرفُ الدين أبو الفضل أحمد ابن كمال الدين موسى بن يونُس بن مَنَعة العُقيلي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ[٣] .

٥ ـ المدرسة الفقيرة : قبل سنة ٦١٨ هـ ـ ١٢٢١ م

وتُعرف أيضًا بمدرسة الطين . ورد ذكرها في ترجمة القاضي أبي بكر محمد ابن عبد الله بن أبي بكر المهاني من « تاريخ إربل » ، قال ابن المستوفي : « وَوَلِيَ تدريس المدرستين بالقَلْعة والرَّبَض وتدريس المدرسة المعروفة بالفَقِيرة المطلّة على رِباط الجنينة من شرقيه ، وتُعرف أيضا بمدرسة الطِّين ، وقفها الفقير أبو سعيد كوكبوري على عدد من الفقهاء الشافعية »[٤] . وسافر مدرسها هذا إلى حلب سنة ٦١٨ هـ وتوفي سنة ٦٢٧ هـ[٥] فيكون إنشاؤها قبل سنة ٦١٨ هـ .

وقد خَلَط محقق « تاريخ إربل » بين هذه المدرسة والمدرسة المُظَفَّرية ودار الحديث المظفَّرية ، فقال في تعليقه على المدرسة المعروفة بالفقيرة : « يبدو أنها المدرسة المظفرية التي أشارَ إليها ابن المستوفي (ورقة ١٦٢ أ) وذكر ابن

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) التكملة : ٢ / الترجمة ١٣١١ .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ٢٠٣٣ .

(٤) تاريخ إربل : ١٥٩ .

(٥) المصدر نفسه .

خلكان بأن له إجازة كُتبت في المدرسة المظفرية بإربل سنة ٦١٦ هـ (كذا) من قبل زينب ابنة أبي القاسم عبد الرحمن الشُّعري الجُرجاني »[١] وهذا الكلام فيه ما فيه فإن ابن المستوفى ذكرَ دار الحديث المظفرية في الموضع الذي أشارَ إليه ، ودار الحديث غير المدرسة ، كما هو معروف ، أما ابن خَلّكان فإنه حصل على إجازة زينب بنت الشعري سنة ٦١٠هـ وليس سنة ٦١٦ هـ لأنها توفيت بإجماع المؤرخين سنة ٦١٥ هـ فكيف تجيزه سنة ٦١٦هـ[٢] ثم إن هذه الإجازة لم تكتب في المدرسة المظفرية لكن الشيخة المذكورة أجازته سنة ٦١٠هـ وذكر أنَّ مولده بالمدرسة المذكورة . ثم إن المدرسة المظفرية معروفة يتكرر ذكرها في المصادر ، أما المدرسة الفقيرة المعروفة بمدرسة الطِّين فهي أقل شأنًا من الأولى وإلا ما كان ليذكر ابن المستوفي كل هذا التعريف بها .

* * *

(١) تاريخ إربل : ٢٥٦ (من قسم التعليق) .

(٢) تنظر ترجمتها في التكملة ٢ / الترجمة ١٦٤٨ .

المبحث السابع

مدارس أخرى

١ ـ المدرسة المجاهدية : (بسِنْجار) في حدود سنة ٥٩٤ هـ ـ ١١٩٧ م

أنشأ هذه المدرسة الأمير مجاهد الدين أبو منصور يَرْنقش بن عبد الله التُّركي الحَنَفي ، وكان مملوكًا لعماد الدين زَنْكي ابن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي بن آق سُنْقُر صاحب سنجار ، فلما توفي سيده عماد الدين سنة ٥٩٤ هـ خلف ولدًا صغيرًا هو قطب الدين محمد ، فقام مجاهد الدين بتربيته وأدار أمور سِنْجار ، وفي أثناء ذلك أنشأ مدرسةً للحنفية وشَرَطَ فيها للفقهاء طبيخًا كل يوم(١) .

ولعل هذه المدرسة الحنفية هي المدرسة العِمَادية (نسبة إلى عِمَاد الدين المذكور) وهي التي دَرَّس فيها عليُّ بنُ الحُسين بن علي بن سعيد بن حامد السِّنْجاري المعروف بابن ذُبابة المتوفى سنة ٦٤٢ هـ ، قال عز الدين الحسيني في « صلة التكملة » : « ودَرَّس بالمدرسة العمادية بسنجار ، وكان فقيهًا فاضلاً وله معرفة بالأدب »(٢) .

٢ ـ المدرسة الهُمامية بتَكْريت : قبل سنة ٥٧٨ هـ ـ ١١٨٢ م

منسوبة إلى هُمام الدين تِبْر بن علي أمير تَكْريت المتوفى سنة ٥٧٨ هـ . وقد جاء ذكرها في ترجمة ابن الفوطي لفخر الدين أبي المكارم عيسى بن

---

(١) التاريخ الباهر : ١٩١ ، ووفيات الأعيان ٢ / ٣٣١ ، وتلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١٥٠ من الميم .

(٢) صلة التكملة ١ / ١١٢ (بتحقيقنا) ، وعنه نقل القرشي في الجواهر ١ / ٣٦١ .

٢٠٤

مودود بن عليّ بن عبد الملك بن شُعيب التْكريتي وصاحب قلعتها وأنه توفى سنة ٥٨٤ هـ ودُفن بالمدرسة الهُمَامية[١] .

⌘ ⌘ ⌘ ⌘

---

(١) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٢٢٧٨ .

المصادر والمراجع

ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)

١ـ التاريخ الباهر . تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٢ـ الكامل في التاريخ . دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ م .

أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ)

٣ـ ضحى الإسلام . القاهرة

أحمد بن حنبل ، الإمام (ت ٢٤١ هـ)

٤ـ المسند . الطبعة الميمنية ، القاهرة ١٨٩٦ م .

الإسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ)

٥ـ طبقات الشافعية . تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ، بغداد ١٩٧٠م .

ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ)

٦ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء . بيروت .

الأهواني ، أحمد فؤاد (ت ١٣٩٠ هـ)

٧ـ التعليم في رأي القابسي . القاهرة .

بحشل ، أسلم بن سهل الرزاز (ت ٢٩٢ هـ) .

٨ـ تاريخ واسط . تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٣٨٧ هـ

البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) .

٩ـ الصحيح . طبعة الشعب عند الإشارة إلى الجزء والصفحة ، وفتح الباري لابن حجر عند الإشارة إلى الرقم .

البلاذري ، يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)

١٠ـ فتوح البلدان . القاهرة ١٩٥٩ م .

البيهقي ، إبراهيم بن محمد (كان حيًا قبل ٣٢٠ هـ)

١١ـ المحاسن والمساوئ . القاهرة .

الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)

١٢ـ الجامع الكبير . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، ط ٢ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٧ م

ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ)

١٣ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٩٢٩ – ١٩٥٦ م

التميمي ، تقي الدين بن عبد القادر (ت ١٠٠٥ هـ) .

١٤ـ الطبقات السنية في تراجم الحنفية (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٧٤٤) .

التنوخي ، المحَسِّن بن علي (ت ٣٨٤ هـ)

١٥ـ نوار المحاضرة وأخبار المذاكرة . تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ١٩٧١ م

ابن تيمية ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـ)

١٦ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، طبعة الفقي ، القاهرة .

الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

١٧ـ البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨ م .

١٨ـ الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٣٨ – ١٩٤٥ م .

١٩ـ رسالة في المعلمين (ضمن رسائل الجاحظ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ابن جماعة ، بدر الدين محمد بن إبراهيم الكناني (ت ٧٣٣ هـ) .

٢٠- تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العلم والمتعلم . حيدر آباد ١٣٥٣ هـ

ابن جني ، عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)

٢١- الخصائص . تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ)

٢٢- صيد الخاطر ، القاهرة ١٩٢٧ م

٢٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . تحقيق سالم الكونكوي ، حيدر آباد ١٣٥٧ - ١٣٥٩ هـ .

ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)

٢٤- الجرح والتعديل . تحقيق عبد الرحمن اليماني ، حيدر آبادر ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧ هـ)

٢٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . إستانبول ١٩٤١

ابن حزم ، علي بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)

٢٦- المفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ

الحسيني ، عز الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٦٥٩ هـ)

٢٧- صلة التكملة لوفيات النقلة . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٧ م .

الحميدي ، عبد الله بن الزبير (ت ٢١٩هـ)

٢٨- مسند الحميدي . تحقيق شيخنا العلامة حبيب الرحمن الأعظمي ، عالم الكتب بيروت .

الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) .

٢٩- تاريخ مدينة السلام . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠١ م .

ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ)

٣٠- وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٢ - ١٩٧٢ .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)

٣١- السنن . تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة .

ابن الدبيثي ، أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت ٦٧٣ هـ)

٣٢- ذيل تاريخ مدينة السلام . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٧ م .

الدمياطي ، شهاب الدين أحمد بن أيبك الحسامي (ت ٧٤٩ هـ)

٣٣- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (نسخة دار الكتب المصرية ، رقم ٢٩٦) ثم طبع بعد .

الديوه جي ، سعيد

٣٤- مدارس الموصل في العهد الأتابكي . بحث منشور في جملة سومر م ١٣ ، بغداد ١٩٥٧ م .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨) .

٣٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٣ م .

٣٦- سير أعلام النبلاء . مجموعة من المحققين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠١هـ .

٣٧- المختصر المحتاج إليه . تحقيق شيخنا العلامة مصطفى جواد ، بغداد ١٩٥١ - ١٩٧٧ م .

الرامهرمزي ، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (ت ٣٦٠ هـ) .

٣٨- المحدث الفاضل بين الراوي والواعي . تحقيق محمد عجاج الخطيب ، ط ٣ ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

ابن رجب ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (ت ٧٩٥ هـ) .

٣٩ـ الذيل على طبقات الحنابلة . القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م .

رضوان السيد

٤٠ـ مقدمة كتاب الأسد والغواص . بيروت .

الزَّبيدي ، السيد محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ)

٤١ـ تاج العروس من جواهر القاموس . طبعة القاهرة .

الزرنوجي ، برهان الإسلام (توفي في النصف الأول من القرن السابع)

٤٢ـ تعليم المتعلم طريق التعليم . القاهرة

ابن الساعي ، تاج الدين علي بن أنجب (ت ٦٧٤ هـ)

٤٣ـ طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق الدكتور محمود الطناجي والدكتور عبد الفتاح الحلو ، القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧٦ م .

ابن سعد ، محمد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠ هـ)

٤٤ـ الطبقات الكبرى . دار صادر ، بيروت ١٤٠٥ هـ .

السلامي ، تقي الدين محمد رافع (ت ٧٧٤ هـ)

٤٥ـ المنتخب المختار المذيل به على تاريخ ابن النجار (انتخاب تقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ) . تحقيق عباس العزاوي ، بغداد ١٩٣٨ م .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) .

٤٦ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها . القاهرة ١٩٥٨ .

أبو شامة ، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) .

٤٧ـ ذيل الروضتين في أخبار الدولتين . القاهرة ١٣٦٦ هـ .

ابن الشعار ، أبو البركات المبارك بن أبي بكر الموصلي (ت ٦٥٤ هـ) .

٤٨ـ عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (مخطوطة أسعد أفندي باستانبول رقم ٢٣٢٣ – ٢٣٣٠) .

شلبي ، الدكتور أحمد

٤٩ـ التربية الإسلامية . ط ٧ ، القاهرة ١٩٨٢ م .

ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥ هـ) .

٥٠ـ المصنف . إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، باكستان ١٩٨٧ م .

الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر (ت نحو ٥٩٠ هـ) .

٥١ـ نظرية التربية في طلب الحسبة . القاهرة ١٣٦٥ هـ .

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ) .

٥٢ـ الوافي بالوفيات . تحقيق مجموعة من المحققين ، طبعة جمعية المستشرقين الألمانية .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .

٥٣ـ تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل أي القرآن (بتهذيبنا)

٥٤ـ مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٤ م .

الطرطوشي ، محمد بن الوليد ، أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ) .

٥٥ـ سراج الملوك . القاهرة .

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ) .

٥٦ـ جامع بيان العلم وفضله . المطبعة المنيرية ، القاهرة .

ابن العماد ، أبو العلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ)

٥٧ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة ١٣٥٠ هـ .

العماد الأصبهاني ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٩٦ هـ)

٥٨- فريدة القصر وجريدة العصر (القسم الشامي ، دمشق ١٩٥٥ - ١٩٦٤ ، والقسم العراقي ، بغداد ١٩٥٥ - ١٩٦٥ ، ١٩٧٣) .

عماد عبد السلام رؤوف .

٥٩- مدارس بغداد في العصر العباسي . بغداد ١٩٦٦ م .

العيني ، بدر الدين محمد بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥ هـ) .

٦٠- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مخطوطة دار الكتب المصرية المصورة رقم ١٥٨٤ تاريخ) .

عبد الغافر الفارسي ، عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر (ت ٥٢٩ هـ)

٦١- السياق في تاريخ نيسابور . نشره ريجارد فراي

الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ)

٦٢- إحياء علوم الدين . طبعة دار المعرفة ، بيروت .

الغساني ، الملك الأشرف (ت ٨٠٣ هـ)

٦٣- المسجد المسبوك . تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، بيروت ١٩٧٥ م .

ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣)

٦٤- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب . الجزء الرابع ، تحقيق شيخنا العلامة مصطفى جواد ، دمشق ١٩٦٢ - ١٩٦٥ ، والجزء الخامس منشور في مجلة أورينتل كولج مكزن بالهند بتحقيق القاسمي .

الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) .

٦٥- القاموس المحيط . طبعة الرسالة ، بيروت .

القرشي ، محيي الدين عبد القادر بن محمد (ت ٧٧٥ هـ) .

٦٦- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية . حيدر آبادر ١٣٣٢ هـ

القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)

٦٧- إخبار العلماء بأخبار الحكماء . تحقيق ليبرت ، لايبزك ١٩٠٣ م .

ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ) .

٦٨- إغاثة اللهفان . دار المعرفة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٥ م .

ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ)

٦٩- البداية والنهاية في التاريخ . القاهرة ١٣٥٨ هـ

لستر

٧٠- خطط بغداد ، ترجمة الدكتور صالح العلي ، بغداد .

المزي ، جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن (ت ٧٤٢ هـ)

٧١- تهذيب الكمال في أسماء الرجال . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠ - ١٩٩٢ م .

ابن المستوفي ، أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي (ت ٦٣٧ هـ)

٧٢- تاريخ إربل (نباهة البلد الخامل ممن ورده من الأماثل) . تحقيق الدكتور سامي الصقار ، بغداد ١٩٨٠ م .

مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) .

٧٣- الصحيح . عناية محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة .

مصطفى جواد ، العلامة الدكتور (ت ١٩٦٩ م)

٧٤- أول مدرسة في العراق . المعلم الجديد ، العدد ١ ، بغداد ١٩٤٠ هـ .

ابن الملقن ، سراج الدين عمر بن علي (ت ٨٠٤)

٧٥- العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٧٩ تاريخ) .

المنذري ، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ)

٧٦- التكملة لوفيات النقلة . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨٨ م .

منصور بن سليم الاسكندراني (ت ٧٧٣) .

٧٧- ذيل إكمال الإكمال . تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي ، مكة المكرمة ١٤١٩ هـ .

ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) .

٧٨- لسان العرب . طبعة دار صادر ، بيروت .

ناجي معروف ، العلامة الدكتور (ت ١٩٧٧ م) .

٧٩- تاريخ علماء المستنصرية . ط ٢ ، بغداد ١٩٦٥ م .

٨٠- ضوء جديد على أوقاف المستنصرية . الأقلام م ٢ ، بغداد ١٩٦٥ م

٨١- علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي . بغداد ١٩٧٣ م .

٨٢- المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة . بغداد ١٩٦٥ م .

٨٣- نشأة المدارس المستقلة في الإسلام . بغداد ١٩٦٦ م .

ابن ناصر الدين ، محمد بن أبي بكر بن عبد الله (ت ٨٤٢ هـ) .

٨٤- توضيح المشتبه . تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، ط ٢ ، بيروت ١٩٩٣ م .

ابن النجار ، محب الدين محمد بن محمود (ت ٦٤٣ هـ) .

٨٥- التاريخ المجدد لمدينة السلام (مجلد الظاهرية رقم ٤٢ ، ومجلد باريس رقم ٢١٣١ عربي) .

النديم ، محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠)

٨٦ـ الفهرست . تحقيق العلامة أيمن فؤاد السيد ، مؤسسة الفرقان ، لندن ٢٠٠٩ م .

ابن نقطة ، أبو بكر محمد بن عبد الغني البغدادي (ت ٦٢٩ هـ)

٨٧ـ إكمال الإكمال . تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي ، مكة المكرمة ١٤١٧ هـ .

وليد الأعظمي

٨٨ـ مدرسة الإمام أبي حنيفة (المجموعة الكاملة ، م ٣) ، بيروت ٢٠٠٧ م .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦) .

٨٩ـ معجم الأدباء . طبعة مرجليوث ، القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٣٠ م .

٩٠ـ معجم البلدان . طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .

مجهول

٩١ـ كتاب الحوادث . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف والدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٧ م .

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٣٨٦٦ / ١٤ - ١٢ - ٢٠١٠م

I S B N

978- 977- 481- 056- 5

التربية والتعليم في العراق

حتى نهاية العصر العباسي



